لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

﴿ تأليف العلامة المفضال الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى ﴾

(تنبيه) لايخفى أن ترقية الوعظ الدينى من أهم المسائل الشاغلة لأفكار الباحثين فى شؤن المسلمين اليوم ومن أجلّ أسبابها مسألة الكتب المفيدة الجيدة ولما رأى حضرة المؤلف المذكور أن اختصار الاحياء من أحسن الوسائل الجليلة النفع فى هذا الباب قام بذلك ـ واذ آ ناشغفين بنشر الكتب النافعة الاسلامية أهدانا ذلك الكتاب المنسوخ بخطه وأذن لنا فى نشره ونحن رغبة فى الخدمات الاسلامية رأينا من الواجبات المقدسة القيام بنشره وهاهو قد ظهر فى عالم المطبوعات محلّى بأحسن الحلل فنرجو من الحق جلّ اسمه أن يكمل به النفع

﴿ الجزء الثانى ﴾

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٣١ هـ ﴾

على نفقة البحّاثة المنقّب عن الاسفار النافعة الشيخ محيى الدين صبرى الكردى

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

(مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

﴿ تأليف العلامة المفضال الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى ﴾

(تنبيه) لايخفى أن ترقية الوعظ الدينى من أهم المسائل الشاغلة لأفكار الباحثين فى شؤن المسلمين اليوم ومن أجلّ أسبابها مسألة الكتب المفيدة الجيدة ولما رأى حضرة المؤلف المذكور أن اختصار الاحياء من أحسن الوسائل الجليلة النفع فى هذا الباب قام بذلك ـ واذ رآ ناشغفين بنشر الكتب النافعة الاسلامية أهدانا ذلك الكتاب المنسوخ بخطه وأذن لنا فى نشره ونحن رغبة فى الخدمات الاسلامية رأينا من الواجبات المقدسة القيام بنشره وهاهو قد ظهر فى عالم المطبوعات محلّى بأحسن الحلل فنرجو من الحق جلّ اسمه أن يكمل به النفع

﴿ الجزء الثانى ﴾

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٣١ هـ ﴾

على نفقة البحّاثة المنقّب عن الاسفار النافعة الشيخ محيى الدين صبرى الكردى

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

(مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب رياضة النفس

﴿ وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ﴾

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره ، وزين صورة الانسان بحسن تقويمه وتقديره ، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاده وتشميره ، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهّل على خواصّ عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه و بشيره ونذيره ، الذى كان تلوح أنوار النبوّة من بين أساريره ، و يستنشق حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين حسموا مادّة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره ﴿ أمّا بعد ﴾ فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصدّيقين ، وهو على التحقيق شطر الدّين ، وثمرة مجاهدة المتّقين ، و رياضة المتعبدين ، والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة ، والمخازى الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار ربّ العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله

الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ، وجوار الرَّحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس ، إلاّ أنه مرض يفوّت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوّت إلاّ حياة الجسد ، ومهما اشتدَّت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس فى مرضها إلاّ فوت الحياة الفانية . فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب في مرضها وفوت حياةٍ باقيةٍ أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب ، إذ لايخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت ، وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق فى معرفة عللها وأسبابها ثم الى تشمير فى علاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ﴾ واهمالها هو المراد بقوله ﴿ وَقَد خابَ مَنْ دَسَّاها ﴾ ونحن نشير في هذا الكتاب الى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها بعونه تعالى *

﴿ بيان فضيلة حسن الخلق * ومذمة سوء الخلق ﴾

قال الله تعالى لنبيه مثنياً عليه ، ومظهراً نعمته لديه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ الدِّينُ حُسْنُ الخُلقِ ﴾ وهو أن لا تغضب . وقيل يارسول الله : ما الشؤم قال ﴿ سُوءُ الخُلقِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إتّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُها وَخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ﴾

وقيل له يارسول الله ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال ﴿ لاخيرَ فِيها هِيَ مِنْ أهْلِ النَّارِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ استَخلصَ هذا الدّينَ لِنَفْسِهِ ولا يَصلُحُ لِدينِكُمْ إلاّ السَّخاءُ وَحُسنُ الخُلُقِ ألا فَزَيّنُوا دينَكُم بِهِما ﴾ وقيل يا رسول الله أى المؤمنين أفضلهم ايمانا قال ﴿ أحسَنُهُم خُلُقا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّكُم لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأموَالِكُم فَسَعُوهم بِبَسطِ الوَجهِ وَحُسنِ الخُلُقِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يَا أبَا ذَرٍّ لاعقلَ كالتّدبيرِ ولا حَسَبَ كَحُسنِ الخُلُقِ ﴾ وعن الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال وهب مثل السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لاترقع ولا تعاد طينا وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبّ الىَّ من أن يصحبني عابد سيئ الخلق *

﴿ ماقاله السلف فى حسن الخلق وشرح ماهيته ﴾

اعلم أنه روى عنهم في ذلك ماهو كالثمرة والغاية من ذلك ماقاله الحسن رحمه الله . حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندا وكف الأذى . وقال الواسطى هو أن لايخاصِم ولا يخاصَم من شدّة معرفته بالله تعالى وقال أيضا هو ارضاء الخلق فى السراء والضراء وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق وأما حقيقة الخلق فهى هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسرٍ من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر

خلقا سيئاً وانما قلنا إنها هيئة راسخة لان من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ وانما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم وأمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل * ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة ويضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها ونعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها وقد أشار القرآن الى هذه الاخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فالايمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هى قوة اليقين وهى ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع الى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة . فقال : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ اشارة الى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعاً فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال *

﴿ بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة ﴾

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الاخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير فنقول لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حَسِّنُوا أخلاَقَكم) وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الأنس والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للاخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة الى مالامدخل للآدمي واختياره فى أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ماهو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله والى ماوجد وجوداً ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فان النواة ليست بتفّاح ولا نخل إلاّ أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا انضاف التربية اليها ولا تصير تفّاحا أصلا ولا بالتربية فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الاحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها

سريعة القبول و بعضها بطيئة القبول . وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية فى الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انقطع الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى ﴿ أشِدّاءُ عَلى الكُفّارِ رُحَماءُ بَينَهُم ﴾ وصفهم بالشدة وانما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والانبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما أنا بَشرٌ أغضَبُ كما يَغضَبُ البَشرُ ﴾ وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلاّ حقاً فكان عليه الصلاة والسلام لا يخرجه غضبه عن الحق وقال تعالى ﴿ والكاظِمينَ الغَيظَ والعافينَ عنِ النّاسِ ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فردُّ الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكنٌ . وهو المراد بتغيير الخلق . فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على

دفعها عن الانبساط الى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لاشك فيها . والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الاخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ﴿ والَّذينَ إذا أنفَقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقتُرُوا وكانَ بينَ ذَلك قَواماً ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تَجعل يدَكَ مَغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تَبسُطْها كلَّ البَسطِ ﴾ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ﴿ كلوا واشرَبوا ولا تُسرِفوا إنّهُ لا يُحِبُّ المسرِفينَ ﴾ وقال فى الغضب ﴿ أشِداءُ عَلى الكفّارِ رُحماءُ بَينَهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ خيرُ الأُمُورِ أوساطُها ﴾ *

﴿ بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة ﴾

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين (أحدهما) بجود إلهىّ وكمال فطرىّ بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع . (والوجه الثانى) اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال

يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جواداً وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا . فالسخيّ هو الذى يستلذّ بذل المال دون الذى يبذله عن كراهة . والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع . ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس مالم تتعوّد النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم يواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي فى الصّلاَةِ ﴾ ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ولذلك قال الله تعالى ﴿ وَإنها لَكَبِيرَةٌ إلاّ على الخاشِعِينَ ﴾ ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر . ولا ينبغى أن يستبعد مصيرَ الصلاة الى حد تصير هى قرة العين ومصيرَ العبادات لذيذةً فان العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك فانا نرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه مايستثقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرّب بيته

وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول ألفه له وصرف نفسه اليه مدة . وكذلك اللاعب بالحَمام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائما على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحلقها فى جوّ السماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف . واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه . بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر ربانى وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه . وانما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عزّ وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حلّ به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشئ لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذا قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً ـ وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن ـ فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح

حتى لاتتحرك الا على وفقها لامحالة وكل فعـل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور *

واذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير اخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو غاية الفضيلة . ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو فى غاية البعد من الله عزّ وجل. و بين الرتبتين من اختلفت فيه هـذه الجهات . ولـكلّ درجة فى القرب والبعد بحسب ماتقتضيه صفته وحالته ﴿ فَمَنْ يَعمَل مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يرَه * ومَن يَعمَل مِثقالَ ذرّةٍ شراً يرَه ﴾ * ﴿ وما ظلمَهُمُ اللهُ ولـكِنْ كانوا أنفُسَهم يظلمُونَ ﴾ *

﴿ بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ﴾

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الاخلاق هو صحة النفس .والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هوصحةله والميل عن الاعتدال مرض فيه . فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئةعنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعترى المعدة المَضَرَّةُ بعوارض

الاغذية والاهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لايخلق كاملا وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم . وكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد القوة اليها واكتساب زيادة صفائها وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتّسخى ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد وبالجملة فالطريق الكلى فى معالجة القلوب هو سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس وتميل اليه وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى ﴿ وأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبهِ ونهى النّفسَ عَنِ الهَوَى

فإنّ الجَنةَ هِيَ المأوَى ﴾ والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً فينبغي أن يصبر ويستمر فانه ان عوّد نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت (عافانا الله تعالى من فسادها) *

﴿ بيان الطريق الذى يعرف به الانسانُ عيوبَ نفسه ﴾

اعلم أن الله عزّ وجل اذا أراد بعبد خيرا بصّره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه . فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق *

(الأوّل) أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويتبع اشارته فى مجاهدته وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرّفه أستاذه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه *

(الثانى) أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا يلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه . فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الىّ عيوبى وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين فهل ترى علىّ شيأ من آثار النفاق . فهو على جلالة قدره وعلوّ منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه . فكل من كان أوفر

عقلا وأعلى منصبا كان أقلّ اعجابا وأعظم اتهاما لنفسه وفرحا بتنبيه غيره على عيوبه وقد آل الأمر فى أمثالنا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ـ ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الايمان ـ فان الأخلاق السيئة حيّات وعقارب لدّاغة فلو نبهنا منبّه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منةً وفرحنا به واشتغلنا بازالة العقرب وقتلها . وانما نكايتها على البدن ولا يدوم ألمها يوما فما دونه . ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبد الآباد ثم أنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بازالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الايمان فنسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله *

(الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساويا ولعل انتفاع الانسان بعدوّ مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه الا أن الطبع مجبول على تكذيب العدوّ وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لا بد وان تنتشر على ألسنتهم *

(الطريق الرابع) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق

فليطالب نفسه به وينسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى فما يتصف به غيره فلا ينفك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شئ منه فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل مايذمه من غيره . وناهيك بهذا تأديبا . فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب . وهـذا كله من حيل من فقد شيخا مربيا ناصحا فى الدين والا فمن وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه فانه يخلصه من مرضه *

﴿ بيان تمييز علامات حسن الخلق ﴾

اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه قد هـذّب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا

خالدون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ الى آخر السورة فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ماوجده . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها الى محاسن الاخلاق . فقال ﴿ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾ وقال عليه السلام ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ﴾ وقال ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ﴾ وذكر ان صفات المومنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ﴾ وقال ﴿ لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه ﴾ وقال عليه السلام ﴿ لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً ﴾ وقال صلى الله

عليه وسلم ﴿ إنما يَتجالَسُ المتجالِسانِ بأمانَةِ اللهِ عزّ وجلّ فلا يَحلُّ لأحدِهما أن يُفشِيَ على أخيهِ ما يَكرَهُهُ ﴾ وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفا فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه اعرابيّ فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه حتى نظرت الى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه . فقال يا محمد هب لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكثرت قريش ايذاءه قال ﴿ اللّهمّ اغفِرْ لِقَوْمى فإنهُم لا يَعلمُونَ ﴾ *

حكى أن الأحنف بن قيس قيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس ابن عاصم قيل له وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لا روع عليكِ أنتِ حرّة لوجه الله تعالى *

وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع ياغلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتى قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى *

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يامرائى فقال ياهذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة *

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغترّ بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة الى أن يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها إلاّ المقربون والصديقون *

﴿ بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوءهم ﴾

(ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبى أمانة عند والديه . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل مانقش ومائل الى كل مايمال به اليه فان عُوِّد الخيرَ وعُلّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلّم له ومؤدّب وان عوّد الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه وقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وارضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال . ومهما رأى فيه مخايل التميز فينبغي أن يحسن مراقبته . وأول ذلك

ظهور أوائل الحياء فانه إذا كان يحتشم و يستحى و يترك بعض الأفعال فليس ذلك إلاّ لاشراق نور العقل عليه وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب فالصبي المستحى لاينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . وأول مايغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه . وأن يأكل مما يليه . وأن لايبادر الى الطعام قبل غيره . وأن لا يحدّق فى النظر اليه ولا الى من يأكل . وأن لايسرع فى الأكل . وأن يجيد المضغ وأن لايوالى بين اللقم . ولا يلطخ يده ولا ثوبه . وأن يعوّد الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لايصير بحيث يرى الادم حتما . وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم . وبأن يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الاكل ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الاكل . وأن يحبّب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أىّ طعام كان . وأن يحبب اليه من الثياب ماليس بملوّن وحرير ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه و يكرر ذلك عليه . ومهما رأى على صبى ثوبا من حرير أو ملونا فينبغى أن يستنكره و يذمه وأن يحفظ عن الصبيان الذين عوّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه مايرغبه فيه . فان الصبي مهما أهمل فى ابتداء نشوءه خرج فى الاغلب ردىء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذافضول وضحك وكياد ومجانة وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب . ثم

يشتغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات الابرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين . ويحفظ من الاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد . ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يُكرَم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس . فان خالف ذلك فى بعض الاحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما اذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه . فان أظهر ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سراً ويعظم الامر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطّلَعَ عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فانه يهوّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الاب حافظا هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوّفه بالاب وتزجره عن القبائح . وينبغى أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسخف بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا منع تعوّدَ تركَ فعلِ القبيح . ويعوّد فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل . ويعوّد أن لا يكشف أطرافه . ولا

يسرع المشى . ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه بل يعوّد التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم . ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له بل يعلم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخذ وان الأخذ لؤم وخسة ودناءة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها . وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما . ويحذرمنهما أكثرمما يحذرمن الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة أضرّ من آفة السموم على الصبيان بل وعلى الكبار أيضاً . وينبغي أن يعوّد أن لا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس . ويمنع كثرة الكلام . ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام . ويمنع اليمين رأساً صادقا كان أوكاذبا حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر . ويعوّد حسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فان ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى

يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا . و ينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التميز فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان . و يعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع ويخوّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش فاذا وقع نشوءه كذلك فى الصبي فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرّف أسرار هذه الأمور *

كتاب افات اللسان

﴿ بيان خطر اللسان ﴾

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا يَستقيمُ إيمانُ العبدِ حتى يَستقيمَ قلبُهُ ولا يَستقيمُ قلبُهُ حتى يَستقيمَ لِسانُهُ ولا يَدْخُلُ الجنّةَ رَجلٌ لا يَأمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ) وقال معاذ بن جبل قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال (يا ابنَ جَبَلٍ وهلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ عَلى مَناخِرِهِمْ إلاّ حَصائدُ ألسِنَتِهِمْ) وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم . وعنه صلى الله عليه وسلم (مَنْ كَفَّ لِسانَهُ سَترَ اللهُ عوْرَتَهُ ومَن مَلَكَ غضَبَهُ وَقَاهُ اللهُ عذابَهُ . ومَن اعتَذَرَ الى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَن كان يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو

ليَسكُت) وعنه عليه الصلاة والسلام (إخزِنْ لِسانَكَ إلاّ مِنْ خيرٍ فإنك بذلكَ تَغلِبُ الشيطانَ)

﴿ جمل من آفات اللسان ﴾

﴿ الأولى الكلام فيما لا يعنى ﴾

إعلم أن رأس مال العبد أوقاته فمهما صرفها الى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (مِنْ حُسْنِ إسلامِ المَرءِ ترْكُهُ ما لا يَعنِيهِ) وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة به اليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن يعلم أن أنفاسه رأس ماله وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين *

﴿ الآفة الثانيه فضول الكلام ﴾

وهو أيضاً مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذَكَرَ كلمتين فالثانية فضول ـ أى فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عز وجل (لا خَيرَ فى كثيرٍ مِنْ نَجْواهمْ إلاّ مَنْ أمَرَ بصَدَقةٍ أو معرُوفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناسِ) وقال صلى الله عليه وسلم (طُوبَى لمَن أمسَكَ الفَضلَ

مِنْ لِسانهِ وأنفقَ الفضلَ مِن مالِه) فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . قال عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يَعُدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرًا بمعروف أو نهياً عن منكر أو تنطق لحاجتك في معيشتك التى لا بدَّ لك منهـا . أتنكرون إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . أما يستحى أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه وقال ابن عمر : ان أحق ماطهر الرجل لسانه . وفي أثر : ما أوتى رجل شرًّا من فضل في لسان *

﴿ الآفة الثالثة الخوض فى الباطل ﴾

وهو الكلام في المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المذمومة فان ذلك مما لايحل الخوض فيه . وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض فى الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها الا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا . وفى الحديث (أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل) واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ وكنّا نخوض مَعَ الخائضينَ ﴾ و بقوله تعالى ﴿ فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتَّى يَخوضوا فى حديثٍ غيرِهِ إنَّكم إذًا مِثْلَهُم ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ الرّجلَ ليتكلمُ

بالكلمةِ مِنْ رِضوانِ اللهِ مايظُنُّ أنْ تَبلغَ ما بَلغَتْ يَكتبُ اللهُ بِهارِضوانَهُ إلى يومِ القيامةِ وَإنّ الرّجلَ لَيتكلمُ بالكلِمةِ مِنْ سَخطِ اللهِ ما يَظنُّ أن تَبلغَ مابَلغتْ يكتبُ اللهُ عليهِ بها سخطَهُ إلى يومِ القيامةِ ﴾ *

﴿ الآفة الرابعة المراء والجدال ﴾

وذلك منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تمارِ أخاكَ ولا تمازِحهُ ولاتعِدهُ موعدا فتخلفَهُ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ماضلّ قومٌ بَعدَ أنْ هَدَاهم اللهُ إلاّ أُوتوا الجَدَلَ ﴾ وعنه ﴿ لايَستكملُ عبدٌ حقيقَةَ الإيمانِ حتّى يدَعَ المِراءَ وإن كانَ مُحقّا ﴾ *

وقال بلال بن سعد : اذا رأيت الرجل لجوجا ماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبى فاما أن أكذبه واما أن أغضبه . وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى *

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ واما في المعنى واما فى قصد المتكلم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدّق به وان كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه *

والواجب انْ جرى الجدل فى مسألة علمية السكوتُ أو السؤالُ فى معرض الاستفادة لاعلى وجه العناد والنكادة أو التلطفُ فى التعريف لافى معرض الطعن . وأما قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه فهى المجادلة المحظورة التى لا نجاة

من اثمها إلاّ بالسكوت . وما الباعث عليها إلا الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما صفتان مهلكتان . ولا تنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح فى قائله بكل ما يتصوّر له فيثور الشجار بين المتماريين . وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره *

﴿ الآفة الخامسة الخصومة ﴾

وهى أيضاً مذمومة وهى وراء الجدال والمراء وحقيقتها لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وفى الحديث ﴿ إنّ أبغضَ الرّجال إلى اللهِ الألدُّ الخصِمُ ﴾ ولا تكون الخصومة مذمومة الا ان كانت بالباطل أو بغير علم كالذى يدافع قبل أن يعلم الحق فى أى جانب أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لاحاجة لها فى نصرة الحجة واظهار الحقّ أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال وفى الناس من يصرح به ويقول انما قصدى عناده وكسر غرضه وانى ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولاأبالى وهذامقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً . فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ماوجد اليه سبيلا فان ضبط اللسان فى الخصومة على قدر الاعتدال متعذر

والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب واذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات . وأقل مافيه تشويش خاطره حتى أنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حدّ الواجب . فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغى أن لايفتح بابه إلاّ لضرورة وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وقد قال الله تعالى . ﴿ وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسناً ﴾ وقال ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ مَنْ سَلَّمَ عَلَيكَ مِنْ خَلقِ اللهِ فارْدُدْ عليهِ السَّلَامَ وَإن كان مَجوسيًّا ﴾ إنّ اللهَ تَعالى يقولُ ﴿ وَإذَا حُيّيتُمْ بِتَحيّةٍ فحيُّوا بأحسنَ مِنْها أو رُدُّوها ﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لى فرعون خيرًا لرددت عليه . وفي الحديث (الكلمة الطيبة صدقة) وقال عمر رضي الله عنه : البرّ شئ هين وجه طليق وكلام ليّن . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح وقال آخر : كل كلام لايسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فلعله يعوضك منه ثواب المحسنين *

﴿ الآفة السادسة التقعر في الكلام ﴾

وهو التشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه فانه من التكلف الممقوت إذ ينبغى أن يقتصر فى كل شئ على مقصوده ومقصود الكلام

التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل في هـذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير افراط ولا اغراب فلرشاقة اللفظ تأثير فى ذلك *

﴿ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان ﴾

وهو مذموم ومنهىّ عنه ومصدره الخبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إيّاكم وَالفُحشَ فإنّ اللهَ تعالى لا يُحِبُّ الفُحشَ ولا التّفحُّشَ ﴾ ونهى رسول الله عليه السلام عن أن تسب قتلى بدر من المشركين . فقال ﴿ لا تَسبُّوا هؤلاءِ فإنّهُ لا يَخلُصْ إليهِمْ شيءٌ مِمَّا تقولونَ . وتؤذونَ الأحياء ألا إنّ البَذَاءَ لؤمٌ ﴾ وقال عليه السلام ﴿ ليسَ المؤمنُ بالطّعانِ ولا اللّعّانِ ولا الفاحِشِ ولا البَذِيءِ ﴾ وعنه ﴿ إنّ اللهَ لا يُحبُّ الفاحشَ المتفحّشَ الصَّيَّاحَ فى الأسواقِ ﴾ وحـدّ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يدلون عليها بالرموز والكناية . قال ابن عباس : ان الله حيي كريم يعفو ويكنو كنى باللمس عن الجماع : فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير . وكل مايستحيا منـه فلا ينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش *

والباعث على الفحش اما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب *

روى أن اعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني . فقال ﴿عليكَ بتقوى اللهِ وإن امرُؤٌ عيَّرَكَ بشيءٍ يعلمهُ فيكَ فلا تعيّرْهُ بشيءٍ تعلمهُ فيهِ يكُنْ وَبالهُ عليهِ وأجرُهُ لكَ ولا تسبَّنَّ شيأً﴾ قال فما سببت شيأً بعده وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿سِبابُ المؤمنِ فُسوقٌ وَقِتالهُ كُفرٌ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿مَلعُونٌ مَن سَبَّ وَالِدَيْهِ﴾ وفى رواية ﴿مِنْ أكبرِ الكبائرِ أنْ يَسُبَّ الرّجلُ والدَيهِ﴾ قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال ﴿يَسُبُّ أبا الرّجلِ فيسُبُّ الآخرُ أباهُ﴾ *

﴿ الآفة الثامنة اللعن ﴾

اللعن إما لحيوان أو جماد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمنُ ليسَ بلعّانٍ ﴾ واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزّ وجلّ وهو الكفر والظلم . وفى لعن فاسق معيّن خطر فليجتنب ولو بعد موته بل قد يكون أشد ان كان فيه أذى للحيّ . وفى الحديث ﴿لا تسبُّوا الأمواتَ فتؤذوا بهِ الأحياء﴾ ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشر حتى الدعاء على الظالم فانه مذموم وفى الخبر ﴿إنّ المظلومَ ليَدْعو على الظالِمِ حتّى يُكافئَهُ﴾ *

﴿ الآفة التاسعة الغناء والشعر ﴾

والمذموم منهما ما اشتمل على محرّم أو دعاء اليه كتشبيب بمعيّن وهجاء

وتشبه بالنساء وتهييج لفاحشة ولحوق بأهل الخلاعة والمجون وصرف الوقت اليه ونحو ذلك وما خلا عن ذلك فهو مباح *

﴿ الآفة العاشرة المزاح ﴾

والمنهيّ عنه المذموم منه هو المداومة عليه والافراط فيه فأما المداومة فلانه اشتغال باللعب والهزل وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك والضغينة فى بعض الأحوال ويسقط المهابة والوقار وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إنّى لأمزَحُ ولا أقولُ إلاّ حَقاً ﴾ ألا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال عمر . من مزح استخفّ به . وقال سعيد بن العاص لابنه يا بنىّ لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدّنى فيجترئ عليك . وقيل لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح . ويقال المزاح مسلبة للمنهى مقطعة للأصدقاء ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرّسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر اليهم والى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر الى رقص الزنوج فى يوم عيد وهو خطأ وبالجملة فان كنت تقدر على أن تمزح ولا تقول إلا حقا ولا تؤذى قلبا ولا تفرّط فيه وتقتصر عليه أحياناعلى الندور فلا حرج عليك فيه . ومن مطايباته صلى الله عليه وسلم ما روى أن عجوزا أتته . فقال لها ﴿ لا يَدخُلُ الجنّةَ عَجوزٌ فبكَتْ ﴾ فقال لها ﴿ إنّك

لستِ بعَجوزٍ يومئذٍ ﴾ قال الله تعالى ﴿ إنا أنشأناهنَّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكارا ﴾ وجاءت امرأة اليه صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك قال ﴿ ومَن هُوَ أهُوَ الَّذى بعينِهِ بَياضٌ ﴾ قالت والله ما بعينه بياض . فقال ﴿ بَلَى إن بعينهِ بياضاً ﴾ فقالت لا والله . فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما مِنْ أحدٍ إلاّ وَبعينه بياضٌ ﴾ وأراد بالبياض المحيط بالحدقة *

وجاءت امرأة أخرى فقالت يارسول الله احملني على بعير فقال ﴿ بَلْ نَحمِلكِ على ابنِ البَعيرِ ﴾ فقالت ما أصنع به أنه لايحملني . فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما مِنْ بَعيرٍ إلاّ وهُوَ ابنُ بعيرٍ ﴾ *

وقال أنس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله يأتيهم ويقول ﴿ أبا عُميرٍ ما فعلَ النُّغيرُ ﴾ لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة رضى الله عنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال ﴿ تعالَيْ حتى اسابِقُكِ فشددتُ علىّ درعى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال : هذه مكان ذى المجاز وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشئ فقال أعطينيه فأبيت وسعيتُ وسَعى فى أثرى فلم يدركنى ﴾ *

وقالت أيضاً : كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعتُ خزيراً وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك فقالت ما أنا ذائقته فأخذتُ بيدى من الصفحة شيأ منه فلطخت به وجهها ورسول الله جالس بيني و بينها فخفض

لها ركبته لتستقيد فتناولت من الصحفة شيأ فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك . وعن أبى سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علىّ رضى الله عنهما فيرَى الصبىّ لسانه فيهش له *

وقال عيينة الفزارى والله ليكونن لى الابن قد تزوّج و بقل وجهه وما قبلته قط فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ ﴾ *

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل الى هزل *

وقال صلى الله عليه وسلم مرّة لصهيب و به رمد وهو يأكل تمراً ﴿ أتأكلُ التمرَ وَأنتَ رَمِدٌ ﴾ فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم قال بعض الرّواة حتى نظرت الى نواجذه *

وكان نعيمان الأنصارى رجلا مزّاحا لايدخل المدينةطرفة الا اشترى منها ثم أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله اعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أو لم تهده لنا فيقول يارسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبىّ صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه . فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لاعلى الدوام *

(الآفة الحادية عشرة)

(السخرية والاستهزاء) وهو محرم قال تعالى ﴿ يَا أيُّها الذينَ آمنوا

لا يَسخَرْ قَومٌ مِن قَومٍ عَسَى أن يَكونوا خَيرًا مِنهُم وَلا نِساءٌ مِن نساءٍ عَسى أن يَكنّ خَيراً مِنهُنَّ ﴾ ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى القول والفعل وقد يكون بالاشارة والايماء ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه والاستهانة به والاستصغار له وعليه نبه قوله تعالى ﴿عسى أن يَكونوا خَيراً منهُم ﴾ أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك . وهذا انما يحرم فى حق من يتأذى به فأمامن جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزح وقد سبق مايذم منه وما يمدح . وانما المحرّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على حفظه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته لعيب فيه فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها*

(الآفة الثانية عشر افشاء السرّ)

وهو منهىّ عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إذَا حدَّثَ الرّجلُ الحَدِيثَ ثمّ التفَتَ فَهى أمانَةٌ ﴾ وعنه ﴿ الحديثُ بينَكم أمانةٌ ﴾ فافشاء السرّ خيانة وهو حرام إذا كان فيه اضرار . ولؤم ان لم يكن فيه اضرار *

(الافة الثالثة عشر الوعد الكاذب)

فان اللسان سباق الى الوعد ثم النفس ربما لاتسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق . قال الله تعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا أوْفوا بالعُقودِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ العِدةُ عطِيّةٌ ﴾ وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال ﴿ إنّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ ﴾ ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاةُ قال انه كان خطب إلىّ ابنتى رجل من قريش وقد كان منى اليه شبه الوعد فوالله لاألقى الله بثلث النفاق . أشهدكم انى قد زوجته ابنتى *

وعن عبد الله ابن أبى الخنساء قال بايعت النبىَّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يافتى لقد شققتَ علىّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك *

وكان ابن مسعود لايعِدُ وَعداً الا ويقول ان شاء الله وهو الأولى ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء إلاّ أن يتعذر . فان كان عند الوعد عازما على أن لايفى فهذا هو النفاق قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فَهُوَ مُنافِقٌ وَإنْ صامَ وَصلّى وَزَعمَ أنّهُ مسلمٌ إذا حدَّثَ كذَبَ وَإذا وَعَدَ أخْلَفَ وَإذا اؤْتُمنَ خانَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أرْبعٌ مَنْ كنّ فيهِ كان مُنافِقاً وَمن كانَتْ فيهِ خَلّه مِنهنّ كانَ فيهِ خَلةٌ مِنَ النّفاقِ حتّى يَدَعَها إذا حدَّثَ كذَبَ وَإذا وعَدَ

أخلفَ وَإذَا عاهدَ غَدَرَ وإذا خاصَمَ فجَرَ ﴾ وهـذا يُنزّل على من إذا وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عـذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليـه ما هو صورة النفاق ولـكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم خادماً فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منـه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لأبي الهيثم فجعـل يقول (كيفَ بموعدى لأبى الهيثَمِ) فآثره به على فاطمة لِما كان قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة . ولقد كان صلى الله عليـه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليـه رجل من الناس فقال ان لى عنـدك موعدا يا رسول الله قال صـدقتَ (فاحتـكِمْ ماشِئْتَ) فقال أحتكم ثمانين صائبة وراعيها قال هى لك وقال احتكمت يسيراً *

﴿ الآفة الرابعة عشر الـكذب فى القول واليمين ﴾

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال صـلى الله عليه وسـلم ﴿ إيَّاكم والـكذبَ فإنّهُ معَ الفجُورِ وهما فى النّارِ ﴾ وعنـه ﴿ إنّ الكذبَ بابٌ منْ أبوابِ النّفاقِ ﴾ وعنه ﴿ كبُرَتْ خِيانةً أن تُحدّثَ أخاكَ حدِيثاً هُو لكَ بهِ مُصدّقٌ وأنْتَ لهُ بهِ كاذبٌ ﴾ ومرَّ صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة و يتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول

الآخر والله لأزيدك على كذا وكذا فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال ﴿ أُوجِبُ أحدَهما بالإِثمِ والكفّارةِ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم قال ﴿ ثلاثةٌ لايكلّمهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولا ينظُرإليهم المنّانُ بعطيّتهِ والمنفقُ ساعتَهُ بالحلفِ الفاجرِ والمُسبلُ إزارَهُ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ من حلفَ على يمين بإِثمٍ ليقتَطعْ بها مالَ امرِىءٍ مُسلِمٍ بغيرِ حقٍ لقيَ اللهَ عزّ وجلّ وهُوعليهِ غضبانُ ﴾ وقال عليه السلام لمعاذ ﴿ أُوصيكَ بتقوى اللهِ وصِدْقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ والوفاءِ بالعهد وبَذْلِ الطّعامِ وخَفضِ الجَناحِ ﴾ *

﴿ بيان مارخص فيه من الكذب ﴾

اعلم أن الكذب انما حرم لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره وقد يتعلق به مصلحة فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا كما اذا كان فى الصدق سفك دم امرئ قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب وكما اذا كان لايتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنىّ عليه أو تعاشر الزوجين إلاّ بكذب فالكذب مباح الا أنه يقتصر فيه على حدّ الضرورة لئلا يتجاوز الى مايستغنى عنه . وفى معنى ذلك وردت أحاديث كثيرة قال ثوبان : الكذب كله إثم إلا مانفع به مسلما أو دفع عنه ضررا *

﴿ بيان المعاريض ﴾

قد نقل عن السلف (ان فى المعاريض مندوحة عن الكذب) وانما أرادوا اذا اضطر الانسان الى الكذب فأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلا

يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون. ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال مارفعت جنبى مذ فارقت الأمير الا مارفعنى الله . وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتى به العمالُ الى أهلهم ــ وما كان قد أتاها بشئ ــ فقال كان عندى ضاغط . قالت كنت أميناً عندرسول الله وأبى بكر فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا . قال ما أجد ما أعتذر به اليها الا ذلك فضحك عمر وأعطاه شيأ فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا رقيبا وأراد به الله تعالى . وكان النخعى اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو فى الدار قال للجارية قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا ومما تباح به المعاريض قصد تطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ ﴾ وقوله للأخرى ﴿ الذى فى عين زَوْجِكِ بياضٌ ﴾ وللأخرى ﴿ نَحْمِلُكِ عَلى وَلَدِ البعِيرِ ﴾ كما تقدّم *

ومما يتسامح به ماجرت به العادة فى المبالغة كقوله : قلت لك كذا مائة مرّة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة إلا أنه اذا لم يكن قال ذلك إلاّ مرَّة واحدة كان كاذبا *

وأما مايعتاد التساهل به فى الكذب في مثل أن يقال كلِ الطعام فيقول لا أشتهيه فذلك منهي عنه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح ومثل ذلك أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه *

وأما الكذب فى حكاية المنام فالإثم فيه عظيم وفى الحديث ﴿ إنّ مِنْ أعظَمِ الفِريةِ أن يَدَّعِىَ الرَّجُلُ إلى غَيرِ أبيهِ أو يُرِى عَينَيْهِ فى المَنامِ مالم يرَ أو يقولُ علىَّ مالم أقُلْ ﴾ *

﴿ الآفة الخامسة عشر الغيبة ﴾

قد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه الكريم وشبّه صاحبَها بآكل لحم الميتة فقال تعالى ﴿ولا يَغْتَب بَعضُكم بَعضاً أيُحِبُّ أحَدُكم أن يأكُلَ لحمَ أخيهِ مَيتاً فكرِهتُمُوهُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ كُلُّ المُسلِمِ عَلى المُسلِمِ حَرَامٌ دَمهُ ومالهُ وعِرْضُهُ ﴾ والغيبة تتناول العرض . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يامَعشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانه ولم يؤمِنْ بقَلبِهِ لاتَغتابوا المُسلمينَ ولا تَتَبَّعُوا عَوراتِهِم فإنّهُ مَن تَتَبَّعَ عَورَةَ أخيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَورَتَهُ ومَن تتَبَّعَ عَورَتَهُ يفْضَحْهُ ولو فى جَوفِ بَيتِهِ ﴾ وعن مجاهد أنه قال فى قوله تعالى ﴿ وَيل لكُلّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ الهمزة الطعّان فى الناس واللمزة الذى يأكل لحوم الناس . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرُون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ولكن في الكف عن اعراض الناس . وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك *

﴿ بيان معنى الغيبة وحدودها ﴾

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه ونسبه أو فى خُلقه أو في فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى

فى ثوبه وداره ودابته . أما البـدن فذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان وأما النسب فبأن تقول أبوه فاسـق أو خسيس أو زبال أو نحوه مما يكرهه . وأما الخُلق فبأن تقول سيئ الخلق بخيل متكبر مراء شـديد الغضب جبان متهوّر وما يجرى مجراه . وأما فى أفعاله فكقولك هو سارق كذاب شارب خمر خائن ظالم متهاون بالصلاة أو الزكاة لا يحترز من النجاسات ليس باراً بوالديه ونحوه . وأما فعله فكقولك أنه قليـل الأدب متهاون بالناس كثير الـكلام كثير الأكل نؤوم يجلس فى غير موضـعه . وأما فى ثوبه فكقولك انه واسع الـكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحوه *

والقول الجامع في الغيبة ماجاء من قوله صـلى الله عليه وسـلم ﴿ الغيبة ذِكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ ﴾ وانما حرم الذكر باللسان لما فيـه من تفهيم الغـير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول . والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكلُّ ما يُفهِمُ المقصودَ فهو داخل فى الغيبة ـ وهو حرام . فمن أومأ بيده الى قصر أحد أو طوله أو حاكاه فى المشى كما يمشى فهو غيبة . والكتابة عن شخص فى عيب به غيبة لأن القلم أحد اللسانين . وكذا قولك من قدم من السفر أو بعض من مرّ بنا اليوم اذا كان المخاطب يفهمه فهو غيبة . وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة الدعاء كقوله الحمد لله الذى لم يبتلينا بكذا . وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان لـكن ابتلى بما يبتلى به

كلنا وهو كذا فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك . ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعضُ الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى اليه و يعلم مايقول فيذكر الله تعالى و يستعمل اسمه آلة له فى تحقيق خبثه . وكذلك يقول ساءنى ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام لأنه لو اغتم به لاغتمّ باظهار ما يكرهه . وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه وهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفىّ قصده وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت عظيم . ومن ذلك الاصغاء الى الغيبة على سبيل التعجب فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكان يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجيب ماعلمت أنه كذلك كنت أحسب فيه غير هذا . عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق لمغتاب والتصديق بالغيبةغيبة بل الساكت شريك المغتاب الا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وفى الحديث ﴿ مَنْ اذِلّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَم يَنصُرْهُ وهُوَ يَقدِرُ عَلى نَصرِهِ أذَلَّه اللهُ يومَ القِيامةِ على رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ ﴾ وفى رواية ﴿ مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ بالغَيب كانَ حقا على اللهِ أنْ يَرُدَّ عَنْ عِرْضِهِ يومَ القِيامةِ ﴾ *

﴿ الأسباب الباعثة على الغيبة ﴾

منها التشفى وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه فيشتفى بذكر مساوئه . فسبقُ اللسان اليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع .

وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوئ . فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة *

(ومنها) موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى انه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة . وقد يغضب رفقاؤه فيضطر الى أن يغضب لغضبهم اظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوئ *

(ومنها) ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره *

(ومنها) الحسد يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا اليه الا بالقدح فيه حتى يكفوا عن الثناء عليه واكرامه لانه يثقل عليه ذلك *

(ومنها) اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجب *

(ومنها) السخرية والاستهزاء إستحقاراً له ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به *

وثمة أسباب غامضة فيها دسائس للشيطان وهي أن يذكر اسم إنسان فى حالة التعجب أو الرحمة والغضب لله تعالى فيقول مثلا . تعجبت من فلان كيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل . فيكون تعجبه من المنكر

لصدقه أو يقول مسكين فلان غمنى أمره وما ابتلى به . وهوصادق فى الاغتمام وكذا قد يغضب على منكر قارفه انسان فيظهرغضبه و يذكر اسمه . والواجب فى ذلك ستر اسمه وعدم اظهاره على غيره ولا عذر فى ذكر الاسم فى ذلك*

﴿ بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة ﴾

اعلم ان مساوئ الاخلاق كلها انما تعالج بمعجون العلم والعمل وعلاج كف اللسان عن الغيبة اجمالا أن يعلم انه يتعرض لسخط الله تعالى اذا اغتاب لارتكابه ما نهى الله عنه . فمهما آمن العبد بما ورد من الاخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك . وينفعه أيضاً أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَن عُيُوبِ الناسِ ﴾ ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق ان عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه . وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها . واذا لم يجدالعبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم ان ظنه بنفسه انه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم الذنوب . وينفعه أيضا أن يعلم ان تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لاترضى لنفسه أن يُغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه وبالجملة فمن قوى ايمانه انكف عن الغيبة لسانه*

﴿ بيان تحريم الغيبة بالقلب وذلك بسوء الظن ﴾

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدّث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره ظناً بأمر سيئ . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفوّ عنه ولكن المنهى عنه أن يظن. والظن عبارة عما تركَنُ اليه النفس ويميل اليه القلب فقد قال تعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا اجتَنِبُوا كَثيراً منَ الظَنّ إنّ بعضَ الظنّ إثمٌ ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوأ الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فان لم ينكشف كذلك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغى أن تكذبه فانه أفسق الفساق وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا إن جاءكم فاسِقٌ بِنَبأ فَتبَيّنوا أن تُصيبُوا قَوماً بِجهالةٍ ﴾ وفى الحديث ﴿ إنّ اللهَ حرَّمَ مِن المسلم دَمهُ ومالهُ وأنْ يُظَنَّ بهِ ظنَّ السُّوءِ ﴾ وحينئذ فاذا خطر لك وسواسُ سوءِ الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر (فان قلت) فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث (فنقول) أمارة عقد الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله وينفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه . والمخرج منه أن لا يحققه أى لا يحقق فى نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا فى الجوارح . وربما يلقى الشيطان أن هذا من فطنتك وسرعة

تنبهك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى - وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته . ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السرّ ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه *

ومن ثمرات سوء الظن (التجسّس) فان القلب لايقنع بالظن و يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهى عنه قال الله تعالى ﴿ ولا تَجسَّسُوا ﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس أن لايترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقدمضى فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته *

﴿ بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة ﴾

اعلم أنه اذا لم يمكن التوصل الى غرض صحيح فى الشرع إلا بذكر مساوئ الغير فانه يرخص فيه ولا اثم وذلك فى أمور منها التظلم وذلك كمظلوم يرفع ظلامته على انسان الى أمير ليستوفى له حقه إذ لايمكنه استيفاء حقه الا بنسبته الى الظلم . قال صلى الله عليه وسلم ﴿إنّ لِصاحِبِ الحقّ مَقالاً﴾ وعنه ﴿ مَطْلُ الغنِيّ ظلمٌ ﴾ ومنها الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى الى منهج الصلاح *

ومنها الاستفتاء كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخي اذا لم يفد الابهام أو التعريض . وذلك لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : ان أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى ما يكفينى وولدى

أفآخـذ من غير علمه فقال ﴿ خـذى ما يكفيكِ وولدكِ بالمَعرُوفِ ﴾ فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها عليـه السلام اذ كان قصدها الاسـتفتاء ومنها تحذير المسلم من الشر كما اذا علمت من انسان ضرراً فحذرت شخصاً منـه وكالمزكي يطعن فى الشاهد اذا سئل عنـه وكذلك المستشار فى التزويج وايداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة *

ومنها أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا حرج فى ذكره لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به . نعم ان وجدعنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص *

ومنها أن يكون مجاهراً بالفسق متظاهرا به ولا يكره أن يذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به *

﴿ بيان كفارة الغيبة ﴾

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسـف على ما فعله ليخرج من حق الله سـبحانه ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ان قدر عليه ولم يخش محذورا وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال وفى الحديث : أيعجز أحـدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى قد تصدقت بعرضى على الناس . أى لا أطلب مظلمة فى القيامة

منه ولا أخاصمه . وليس المراد اباحة تناول عرضه بل العفو عن جريمته وقد قال تعالى ﴿ خُذِ العفوَ وامُرْ بالعُرفِ واعرِضْ عن الجاهِلينَ ﴾ وفى الحديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ تعالي يأمُرُكَ أن تَعفُوَ عمَّنْ ظلمكَ وتَصِلَ من قطعك وتُعطِيَ من حرَمك ﴾ *

(الآفة السادسة عشر النميمة)

قال الله تعالى ﴿ همّازٍ مشّاءٍ بنميمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَيلٌ لِكلِّ هُمَزَةٍ لمَزَةٍ ﴾ قيل الهمزة النمام وقال تعالى ﴿ حمّالةَ الحطَبِ ﴾ قيل أنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدخلُ الجنّةَ نمّامٌ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ أحبُّكم إلى اللهِ أحاسِنكم أخلاقاً . الموَطَّئونَ أكنافاً(١) الذينَ يألَفونَ ويُؤلَفونَ وإنَّ أبغَضكُمْ إلى اللهِ المشّاؤونَ بالنميمةِ المفرِّقونَ بينَ الإخْوانِ الملتَمِسُون لِلبُرَآءِ العثَراتِ ﴾ *

وحد النميمة هو كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال . وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن . بل حقيقة النميمة افشاء السرّ وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل مارآه الانسان من أحوال الناس فينبغى أن يسكت عنه الا مافى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما اذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود عليه *

---

(١) فلان موطأ الأكناف كمعظم الجوانب كريم مضياف اه قاموس

والباعث على النميمة اما ارادة السوء للمحكيّ عنه أو اظهار الحب للمحكيّ له أو التفرّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل *

وكل من حملت اليه نميمة فعليه أن لا يسارع الى ظن صدقه لقوله تعالى ﴿ إنْ جاءكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وأن ينهاه وينصح له وأن لا يظن بالغائب سوأ وأن لا يحمله ذلك على التجسس *

وقال الحسن : من نمّ اليك نمّ عليك . وهذا اشارة الى أن النمام ينبغى أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والافساد بين الناس وهو ممن يسعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وقال تعالى ﴿ إنَّما السَّبِيلُ عَلى الَّذينَ يَظلِمُونَ النّاسَ وَيَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِ ﴾ والنمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ مِنْ شِرَارِ النّاسِ مَنِ اتقاهُ الناسُ لِشرّهِ ﴾ والنمام منهم . وقيل لمحمد بن كعب القرظى : أىُّ خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السرّ وقبول قول كل أحد . وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك *

﴿ الآفة السابعة عشر كلام ذى الوجهين ﴾

وهو ذو اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه من الثناء عليه فى معاداته وذمه الآخر ووعده بأن ينصره على خصمه . وهو من علامات النفاق . نعم اذا دخل على متعاديين وجامل كل

واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن ذا لسانين ولا منافقا فان الانسان قد يصادق متعاديين . وأما لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرّ من النمام لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط وهذا يزيد النقل من الجانب الآخر ويزيد أن يحسّن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه . نعم من ابتلى بمراعاة أحد الجانبين فى قول ما لضرورة وخاف من تركه فهو معذور فان اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : انا لنكشر فى وجوه أقوام وأن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو) ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنت له القول فقال (ياعائشة ان شرّ الناس الذى يُكْرَمُ اتقاء شرّه) ولكن هذا ورد فى الاقبال وفي الكشر والتبسم . والا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل . فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه . وللضرورات حكمها *

﴿ الآفة الثامنة عشر المدح ﴾

وهو منهى عنه فى بعض المواضع . أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمهما . والمدح يدخله ست آفات أربع من المادح واثنتان فى الممدوح فأما المادح فالأولى أنه قد يفرط فيه فينتهى به الى الكذب والثانية أنه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً

لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا والثالثة أنه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه والرابعة أنه قد يُفرحُ الممدوحُ وهو ظالم أو فاسق . وذلك غير جائز قال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله في الأرض *

وأما الممدوح فيضره من وجهين (أحدهما) أنه يحدث فيه كبراً واعجابا وهما مهلكان (الثانى) هو أنه اذا أثنى عليه فرح وقتر ورضى عن نفسه وقل تشميره للعمل *

فان سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا اليه *

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ويتذكر أنه يعلم من نفسه مالا يعلمه المادح وانه لو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه . وكان علىّ رضى الله عنه اذا أثنى عليه يقول . اللهم اغفر لى مالا يعلمون . ولا تؤاخذنى بما يقولون . واجعلنى خيرا مما يظنون * وعلى المادح أن لا يجزم القول الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال أسافرت معه قال لا قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة قال لا قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال لا . فقال والله الذى لا اله الا هو لا أراك تعرفه . وفي الحديث ﴿ إِن كانَ أَحَدُكم لا بدَّ مَادِحاً أخاه فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَناً ولا أُزَكّي عَلى اللهِ أحَدًا ﴾

﴿ الآفة التاسعة عشر الخطأ فى دقائق لفظية ﴾

ينبغي التنبّه لدقائق الخطأ فى فحوى الكلام والحذر عن الغفلة عنها لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته . مثاله ماجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ لايَقُلْ أحدُكُم ماشاء اللهُ وَشِئْتُ ولَكِنْ لِيَقُلْ ماشاءَ اللهُ ثُمّ شِئْتُ ﴾ وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ولولا الله وفلان . ويجوّز أن يقول أعوذ بالله ثم بك ولولا الله ثم فلان وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة *

وقال عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ تَعالى يَنهاكم أن تَحلِفوا بِآبائِكُمْ ﴾ قال عمر : فوالله ماحلفت بها منذ سمعتها *

وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ يَقولَنَّ أحَدُكم عَبدِى وَلاَ أَمَتِى كُلّكُمْ عَبيدُ اللهِ وَكلُّ نِساءِكم إماءُ اللهِ وَلْيَقلْ غُلاَمِي وَجارِيَتِي وَلا يَقلِ المَملوكُ رَبّى وَلا رَبَّتِى وَلْيَقلْ سيّدِى وَسيّدَتى فكلكم عبيدُ اللهِ وَالرّبُّ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ﴾ *

وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ تقولوا لِلمُنافِقِ سيّدُنا فإنّهُ إن يَكن سيّدَكُم فَقَدْ أسْخَطْتُم رَبَّكُمْ ﴾ *

فعلى المتكلم أن يوافقه ورع حافظ ومراقبة لازمة ليسلم عن الخطر *

﴿ الآفة العشرون سؤال العوام عن الغوامض ﴾

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح الا أن الفضول خفيف على القلب والعامىّ قد يفرح بالخوض فى العلم إذ الشيطان يخيل اليه أنك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب اليه ذلك حتى قد يتكلم بما هو كفر ولا يدرى . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاضافة اليه عامي . وفى الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال واضاعة المال وكثرة السؤال . وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه اذقال ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فلا تَسْأَلنى عَنْ شَيْءٍ حتَّى أُحدِثَ لكَ منهُ ذكرًا ﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ﴿ لاَ تؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ ترْهِقْنى مِنْ أمرِى عُسرًا ﴾ فلما لم يصبرحتى سأل ثلاثا قال ﴿ هذَا فِرَاقُ بيْنِى وَبَينِكَ ﴾ وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات فيجب منعهم من ذلك وزجرهم *

كتاب ذم الغضب

﴿ والحقد والحسد ﴾

ان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة وأنها لمستكنة فى طىّ الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ويستخرجها الكبر

الدفين فى قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ان الانسان ينزع منه عرق الى الشيطان اللعين فمن استفزّته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتنى من نار وخلقته من طين فان شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار والحركة والاضطراب ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ومفيضهما مضغة اذا صلحت صلح الجسد . واذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد الى مواطن العطب فما أحوجه الى معرفة معاطبه ومساوءه ليحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن القلب ان كان وينفيه وهاك بيان ذلك بعونه تعالى *

﴿ بيان ذم الغضب ﴾

قال الله تعالى (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فى قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعلى المؤْمنينَ) الآية . ذَمَّ الكفار بما تظاهرُوا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة . وروي أن رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل واقلل قال: لاتغضب ثم أعاد عليه فقال . لاتغضب . وقال صلى الله عليه وسلم (ماتَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُم) قلنا الذى لاتصرعه الرجال قال (لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنِ الذى يملِكُ نَفسهُ عِندَ الغَضَبِ) *

وعن جعفر : الغضب مفتاح كل شرّ . وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم والحلم

زين ومنفعه والجهل شين ومضره والسكوت عن جواب الأحمق جوابه وقال الحسن : من علامات المسلم قوّة فى دين وحزم فى لين . وايمان فى يقين وعلم فى حلم . وكيس فى رفق . واعطاء فى حق . وقصد فى غنى . وتجمل في فاقة . واحسان فى قدرة . وتحمّل فى رفاقة . وصبر فى شدّة . لا يغلبه الغضب . ولا تجمح به الحمية . ولا تغلبه شهوة . ولا تفضحه بطنة . ولا يستخفه حرصه . ولا تقصر به نيّته . فينصر المظلوم ويرحم الضعيف . ولا يبخل . ولا يبذر . ولا يسرف . ولا يقتر . يغفر اذا ظُلم . ويعفو عن الجاهل نفسه منه فى عناء . والناس منه فى رخاء *

﴿ درجات الناس مع الغضب ﴾

اعلم أن قوّة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب وانتشاره فى العروق وارتفاعه الى أعالى البدن كما ترتفع النار والماء الذى يغلى فى القدر فلذلك ينصبّ الى الوجه فيحمرّ الوجه والعين ، والبشرةُ اصفائها تحكى لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون مافيها *

ثم ان الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث من التفريط والافراط والاعتدال (أما التفريط) ففقد هذه القوّة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه أنه لاحمية له . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدّة والحمية فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (جاهِدِ الكُفَّارَ وَالمنافِقينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ) وانما الغلظة والشدّة من آثار قوة الحميّة وَهو الغضب *

(وأما الافراط) فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدّين وطاعته ولا يبقى للمرء معه بصيرة وفكرة ولا اختيار بل يصير فى صورة المضطر ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر تغيّر اللون . وشدّة الرعدة فى الأطراف . وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام . واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق . وتحمرّ الأحداق . وتنقلب المناخر . وتستحيل الخلقة . ولو رأى الغضبان فى حال غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته . وقبحُ باطنه أعظم من قبح ظاهره . فان الظاهر عنوان الباطن . وانما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا فتغيّر الظاهر ثمرة تغيّر الباطن فقس المثمر بالثمرة . فهذا أثره في الجسد *

وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم . والفحش من الكلام الذى يستحى منه ذو العقل ويستحى منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تخبط النظم . واضطراب اللفظ . *

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن وقد يمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب بيده على الأرض وربما يعتريه مثل الغشية وربما يضرب الجمادات والحيوانات أو يكسر القصعة أو يشتم البهيمة أو ترفسه دابة فيرفسها ويقابلها بذلك كالمجنون *

وأما أثره فى القلب فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساءآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك

من القبائح . فهذه ثمرة الغضب المفرط *

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس وهو أيضاً مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحُرَم وهو صونها قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ سَعْدًا لَغَيُورٌ وَأَنا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنى ﴾ وانما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل : كل أمة وُضِعت الغيرة فى رجالها وُضِعت الصيانة فى نسائها *

ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال تعالى ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِما رَأفَةٌ فى دينِ اللهِ ﴾ *

فنقدُ الغضب مذموم . وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحميّة وينطفئ حيث يحسن الحلم . وحفظهُ على حدّ الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : خير الأمور أوساطها *

﴿ زوال الغضب بالرياضة وغيرها ﴾

اعلم أنه مادام الانسان يحب شيأ ويكره شيأ فلا يخلو من الغيظ والغضب لأنه من مقتضى الطبع إلاّ أنه قد تفيد الرياضة فى محو قوّته وذلك بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدّة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخاً فالرياضة ليست لينعدم غيظ القلب لأنه غير ممكن . ولكن ليستعمله على حدّ يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك بكسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان

الغيظ فى الباطن ويتهى ضعفه الى أن لا يظهر أثره في الوجه . وقد يتصوّر فقد الغيظ بغلبة نظر التوحيد أو بأن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ فتطفئ شدّة حبه لله تعالى غيظه . أو بأن يشتغل القلب بضرورى أهم من الغضب فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه *

﴿ بيان الأسباب المهيجة للغضب ﴾

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادّتها وازالة أسبابها فلا بدّ من معرفة أسباب الغضب . وأسبابه المهيجة له هى الزهوّ . والعجب . والمزاح . والهزل . والهزء . والتعيير . والمماراة . والمضادة . والغدر . وشدة الحرص على حصول المال والجاه . وهى بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب . فلا بدّ من إزالتها بأضدادها. فينبغي أن تميت الزهوّ بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك . وتزيل الفخر بأنك من جنس أقل مخلوق إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد وانما الفخر بالفضائل . والفخر والعجب أكبر الرّذائل . وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك الى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم على إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مُرّ الجواب . وأما شدّة الحرص فبالصبر على مُرّ العيش وبالقناعة بقدر

الضرورة طلبا لعزّ الاستغناء وترفعاً عن ذلّ الحاجة وكل خلق من هـذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه الى رياضة وتحمّل مشقة. وحاصل رياضتها الرجوع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثم المواظبة على مواظبة أضدادها مدّة مديدة حتى تصير بالعادة هينة مألوفة على النفس فاذا انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت عن هـذه الرذائل وتخلصت أيضاً من الغضب الذى يتولدمنها وأشدالبواعث للغضب عند أكثر الجهّال تسميتهم الغضب شجاعة وعزّة نفس حتى تميـل النفس اليه وتستحسنه وهـذا من الجهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل ويعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليـه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الأنبياء والعلماء *

﴿ بيان علاج الغضب بعد هيجانه ﴾

ماتقدّم هو حسم لموادّ الغضب حتى لا يهيج فاذا جرى سببٌ هيّجه فعنده يجب التثبت حتى لايضطر صاحبه الى العـمل به على الوجه المذموم وانما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل أما العلم فهو أمور :

(الأوّل) أن يتفكر فيما ورد فى فضل كظم الغيظ والعـفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه ويمنعه الرغبة فى الأجر عن الانتقام وينطفئ عنه غيظه *

(الثانى) أن يخوّف نفسه بعقاب الله لو أمضى غضبه وهل يأمن من غضب الله عليه يوم القيامة وهو أحوج ما يكون الى العفو *

(الثالث) أن يحذّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمُّرَ العدوّ لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوّف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا ان كان لايخاف من الآخرة *

(الرابع) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ويتفكّر فى قبح الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء ان كان قد بقى معه مسكة من عقل *

(الخامس) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ مثل قول الشيطان له أن هذا يُحمَل منك على العجز والذلّة وتصير حقيراً فى أعين الناس . فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن . ولا تأنفين من خزى يوم القيامة . ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكةوالنبيين . فمهما كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه لله . وذلك يعظمه عند الله فماله وللناس *

وأما العمل فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وان كنت قائما فاجلس وان كنت جالسا فاضطجع ويستحب أن يتوضأ بالماء البارد فان الغضب من النار والنار لا يطفئها إلاّ الماء *

﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

قال الله تعالى (وسارِعُوا الى مَغفِرَةٍ من رَبِّكم وجَنَّةٍ عَرْضُها السموات والأرضُ أُعِدَّتْ للمتَّقين الذين يُنفقون في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظمين الغَيظَ والعافِينَ عن النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المحسِنين) دلت الآية على أن الكاظمين من المتقين وان مغفرة ربهم تنالهم وجنته أعدّت لهم فما أفضل هذا الجزاء وقال صلى الله عليه وسلم (مَن كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ ومَنِ اعتذَرَ الى ربِّهِ قَبِلَ اللهُ عُذرَهُ ومَنْ خَزَنَ لِسانَهُ سَتَرَ اللهُ عَورَتَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (أشَدُّكم مَن غَلَبَ نفسَهُ عند الغَضَبِ وأحلَمُكم مَن عفا عند القُدرة) وروى أن رجلا من جفاة الأعراب قال لعمر رضى الله عنه والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى (خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرفِ واعرِضْ عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين فسكن عمر رضى الله عنه وعفا عنه ۞

﴿ فضيلة الحلم ﴾

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج الى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه الى مجاهدة شديدة ولكن اذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وان هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة

كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا وفى الحديث (إنما العلمُ بالتعلمِ والحِلْمُ بالتحلمِ) اشارة الى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم وعنه صلى الله عليه وسلم (إنّ الرجلَ المسلمَ لَيُدرِكُ بالحِلْمِ درَجةَ الصائمِ القائمِ) وعن الحسن فى قوله تعالى (وإذا خاطَبَهمُ الجاهلونَ قالوا سَلاَماً) قال حلماء إن جُهل عليهم لم يجهلوا وعن مجاهد فى آية (وإذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرَاماً) أى اذا أوذوا صفحوا وعن علىّ رضي الله عنه ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لاتباهى الناس بعبادة الله واذا أحسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال أكثم دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر وقال معاوية لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك إلا بقوّة العلم وقال معاوية لعمرو بن الاهتم أى الرجال أشجع قال من ردّ جهله بحلمه قال أى الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه وقال معاوية لعرابة بم سدت قومك قال كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل مثل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصّر عنى فأنا خير منه وقال أنس بن مالك فى قوله تعالى (إدفَعْ بالَّتى هىَ أحسنُ فإذا الذى بَينَكَ وبَينَهُ عَداوَةٌ كأنهُ وَلِى حَميمٌ وما يُلَقّاها إلاّ الذين صَبرُوا وما يُلَقّاها إلاّ ذو حَظٍّ عظيمٍ) هو الرجل يشتمه أخوه فيقول إن كنتَ كاذبا فغفر الله لك وإن كنت صادقا فغفر الله لى وعن

عليّ بن الحسين رضى الله عنهما انه سبّه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم . وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعده من الله عزّوجل . وحمله على الندم والتوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشىء من الدنيا يسير *

﴿ بيان القدر الذى يجوز به الانتصار من الكلام ﴾

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السبّ بالسبّ وكذلك سائر المعاصى وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير فقال (إنِ امرُؤٌ عَيَّرَكَ بما فيكَ فلا تعَيِّرْهُ بما فيهِ) وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ـ قالوا ـ والنهى النبوى عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والأفضل تركه ولكنه لا يعصى به ـ قالوا ـ والذى يرخص فيه أن تقول من أنت . ويا أحمق . ويا جاهل . اذ ما من أحد إلا وفيه حمق وجهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله يا سيئ الخلق يا ثلابا للأعراض وكان ذلك فيه . وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك فى عينى بما فعلت واستدلوا بالحديث (المستَبّانِ ما قالاَ فعلَى البادِئِ منهما حتّى يَعتَدِى المظلومُ) فأثبت للمظلوم انتصارا الى أن يعتدى *

فهذا القدرهوالذى أباحه هؤلاء وهو رخصة فى الإيذاء جزاء على إيذائه السابق (قال الغزالى) ولا تبعد الرخصة فى هذا القدر ولكن الأفضل تركه فانه يجره الى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت

عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه . ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ولكن يعود سريعا وفى الحديث (خَيرُ بَنى آدمَ البَطىءُ الغضَبِ السَّريعُ الفَىْءِ وشرُّهمُ السَّريعُ الغضَبِ البَطيءُ الفَىْءِ)

(معنى الحقد ونتائجه الوخيمة وفضيلة الرفق)

اعلم أن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا . ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى . وقد قال صلى الله عليه وسلم (المؤْمنُ ليس بحَقُودٍ) والحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر أمورا منكرة (الأول) الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة ان أصابها وتسرّ بمصيبة ان نزلت به وهذا من فعل المنافقين (الثانى) أن يزيد على اضمار الحسد فى الباطن فيشمت بما أصابه من البلاء (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سرّ وهتك ستر وعورة (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه (السابع) ايذاؤه بالضرب ومايؤلم بدنه (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو ردّ مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد لو احترز عن هذه الآفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق والعناية والقيام بحاجاته أو المعاونة على المنفعة له وكله مما ينقص الدرجة فى الدين ويفوت الثواب الجزيل

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لأ مرّما نزل قوله تعالى (ولا يَأْتَلِ أُولوا الفَضْلِ منكم والسَّعَةِ أن يُؤْتوا أُولِي القُرْبَى ألاَ تحبُّونَ أن يَغفِرَ اللهُ لَكم) فقال أبو بكر نعم نحبّ ذلك وعاد الى الانفاق عليه ۞

والأولى أن يبقى على ما كان عليه فان أمكنه أن يزيد فى الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين ۞

﴿ فضيلة العفو والاحسان ﴾

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرأ عنه من قصاص أو غرامة . قال الله تعالى (خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ) وقال تعالى (وَأَن تعفوا أقرَبُ لِلتَّقوَى) وقال صلى الله عليه وسلم (التّواضُعُ لاَ يَزِيدُ العَبدَ إلاّ رِفعَةً فتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكم اللهُ والعَفوُ لا يَزِيدُ العَبدَ إلاّ عِزًّا فاعفوا يعزَّكُمُ اللهُ والصَّدَقَةُ لا تَزِيدُ المالَ إلاّ كثْرَةً فتَصَدَّقوا يَرحَمكمُ اللهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (أفضَلُ أخلاَقِ أهلِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَعفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ) وروى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه دخل على أمير يعرّض له بالعفو فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به اخوته من بيعهم إيَّاه وطرحهم له فى الجب فقال (باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم) وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الأمير ماذا صنع الله به أداله منهم ورفع ذكره

وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال (لا تَثْرِيبَ عَليكمُ اليَوْمَ يَغفِرُ اللهُ لكم وَهُوَ أرحَمُ الرَّاحِمينَ) فعفا ذلك الأمير وروي أن ابن مسعود سرقت له دراهم فجعلوا يدعون على من أخذها فقال لهم اللهم ان كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها وان كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال فاذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والافضال *

﴿ فضيلة الرفق ﴾

اعلم أن الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدّة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظةِ . والرفقُ واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة . ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوّة الغضب وحفظها على حدّ الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال (مَنْ أُعطِيَ حظَّهُ مِنَ الرّفقِ فقد أُعطِيَ حظّهُ مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ . ومن حُرِمَ حظّهُ منَ الرّفقِ فقد حُرِمَ حظّهُ من خيرِ الدُّنيا والآخرَةِ) وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أحبَّ اللهُ أهلَ بيتٍ أدخلَ عليهِمُ الرّفقَ) وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة (عَليكِ بالرّفقِ فإنّهُ لا يدخلُ في شيءٍ إلاّ زانَهُ ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلاّ شانهُ) *

وسر الترغيب في الرفق والثناء عليه هو كون الطباع الى العنف والحدة أميل . وان كان العنف في محله حسنا فان الحاجة قد تدعو اليه ولكن على الندور * والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطي كل أمر حقه *

﴿ ذم الحسد ﴾

اعلم ان الحسد أيضا من نتائج الحقد الذميم . وللحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد فى ذمه أخبار كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم (الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسناتِ كما تأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ) وقوله (لاَ تَحاسَدُوا وَلاَ تَقاطَعُوا وَلاَ تَباغَضُوا وَلاَ تَدابَرُوا وَكونوا عِبادَ اللهِ إخْوَاناً كما أمرَكم اللهُ) ومن الآثار * قول بعض السلف . ان أول خطيئة كانت هى الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية (وعن) ابن سيرين رحمه الله . ما حسدت أحدا على شئ من أمر الدنيا لانه ان كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا وهى حقيرة في الجنة وان كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير الى النار وقال بعضهم الحاسد لاينال من المجالس إلاّ مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة إلاّ لعنة وبغضاً ولا ينال من الخلق إلاّ جزعا وغما ولا ينال عند الموقف إلاّ فضيحة ونكالا *

﴿ حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ﴾

الحسد نوعان (أحدهما) كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه (وثانيهما) عدم محبة زوالها وتمنى مثلها وهذا يسمى غبطة فالأوّل حرام بكل حال الا نعمة أصابها فاجر وهو يستعين بها على محرم كافساد وايذاء فلا يضر محبة زوالها عنه من حيث هى آلة الفساد ويدل على تحريم الحسد

الاخبار التى نقلناها وان هـذه الكراهة تسخط لقضاء الله فى تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لاعذر فيـه ولا رخصة وأىّ معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة والى هذا أشار القرآن بقوله (إنْ تَمْسَسكُمْ حَسَنَة تَسُؤْهُمْ وإنْ تصِبْكُمْ سَيِّئَة يفرَحُوا بها)وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان وقال تعالى (ولا يَجِدُونَ فى صدُورِهم حاجَةً مِمَّا اوتوا) أى لا تضيق صـدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد . وأما المنافسة فليست بحرام بل قد تكون مطلوبة قال تعـالى (وَفى ذلك فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ) وقال تعالى (سابِقوا إلَى مغفرَةٍ مِنْ رَبِّكمْ) وقال صلى الله عليه وسلم (لاَ حَسَدَ إلاّ فِى اثنَتَين رَجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فَسلَّطَهُ على هَلَـكَتِهِ فى الحقّ ورَجلٌ آتاهُ اللهُ عِلماً فهُوَ يَعملُ بهِ ويُعلِّمُهُ الناسَ) فلا حرج على من يغبط غـيره فى نعمة ويشتهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . وأما تمنى عين نعمة الغير بانتقالها اليه لرغبته فيها بحيث يكون مطلوبه تلك النعمة لا زوالها فهو مذموم لقوله تعالى (ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعضَكمْ عَلى بَعضٍ) وأما تمنيه لمثـل ذلك فليس مذموما فاعرف الفرق *

﴿ أسباب الحسد ﴾

للحسد المذموم مداخـل كثيرة وأسباب عـديدة (فمنها) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه

الحقد . والحقد يقتضى منه التشفى والانتقام . فان عجز المتنغص عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان . وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى . فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وانها لاجله . ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه لامنزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما . وانما غاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه (ومنها) التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره (ومنها) حب الرياسة وطلب الجاه بأن يكون منفردا عديم النظير غير مشارك فى المنزلة يسوءه وجود مناظر له فى المنزلة (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد فيما أنعم عليه ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد واضطراب أموره وتنغص عيشه . فهو أبدا يحب الادبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه . وهذا ليس له سبب ظاهر الا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع ومعالجته شديدة لانه خبث فى الجبلة لاعن عارض حتى يتصور زواله . وقد يجتمع بعض هذه الاسباب أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لايقدر معها على الاخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه *

﴿ بيان الدواء الذى ينفي مرض الحسد عن القلب ﴾

إعـلم أن الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل . والعـلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وانه لاضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوّك فارقت الحسد لامحالة أما كونه ضررا عليك فى الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعـالى وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده وعدله الذى أقامه فى ملـكه بخفيّ حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذه جناية فى حدقة التوحيد وقذى في عين الايمان وناهيك بهما جناية على الدّين وقد انضاف الى ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت ابليس والكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم وهـذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب . وأما كونه ضرراً فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذّب به ولا تزال فى كمد وغم إذ أعـداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذّب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموماً ضيق الصدر قد نزل بك مايشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوّك فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا ولا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لـكان مقتضي

الفطنة ان كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العـذاب الشديد فى الآخرة فما أعجب ممن يتعرّض لسخط الله من غـير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة . وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لاتزول عنه بحسدك . وأما أن المحسود ينتفع به فى الدّين والدنيا فواضح أما منفعته فى الدّين فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيما اذا أخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساوءه فهذه هدايا تهديها اليه إذتهدى اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً كما حرمت فى الدنيا عن النعمة . فاذا تأملت هذا عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوّك إذتعاطيت ماتضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوّك فى الدنيا والآخرة وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق شقيا فى الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ومن تفكّر فى هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه . وأما العمل النافع فيـه فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة فتعود القلوب الى التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض . فهذه هى أدوية الحسد وهى نافعة جداً الا أنها مُرَّة على القلوب جـداً ولكن النفع فى الدواء المرُّ فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء . وانما تهون مرارة هذا الدواء أعنى التواضع للأعداء والتقرب

اليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التى ذكرناها وقوة الرغبة فى ثواب الرضاء بقضاء الله تعالى *

كتاب ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك . فلا حاجة الى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها . وانما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على شاة ميتة . فقال (أترَوْنَ هذِهِ الشاةَ هيّنةً على أهلِها) قالوا من هوانها ألقوها قال (والّذى نفسى بيدِهِ للدُنْيا أهونُ على اللهِ من هذِهِ الشّاةِ على أهلِها ولو كانَتِ الدُّنيا تَعدِلُ عندَ اللهِ جَناحَ بعُوضةٍ ماسقى كافِراً منها شَربةَ ماءٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (حبُّ الدُّنيا رَأسُ كلّ خطيئَةٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (إنّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وإنّ اللهَ مُستخلفُكُمَ فيها فَناظِرٌ كيفَ تعمَلُون)

﴿ بيان الدنيا المذمومة ﴾

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة . ماهى وما الذى ينبغى أن يجتنب منها وما الذى لا يجتنب فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هى . فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك . فالقريب الدانى

يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت . والمتراخى المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت . فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهى الدنيا فى حقك إلا أن جميع ما لك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام (القسم الأول) ما يصحبك في الآخرة ويبقى معك ثمرته بعد الموت وهو العلم النافع والعمل الصالح . (القسم الثانى) وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصى كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة فى جملة الرفاهية والرعونات أى فى السرف فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة (القسم الثالث) وهو متوسط بين الطرفين كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة وهو ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التي بها يصل الى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول لأنه معين على الأول ووسيلة اليه فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة وان أخذ ذلك بقصد حظ النفس فهو من الدنيا فاذًا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى واليه الاشارة بقوله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) ومجامع الهوى خمسة أمور وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى (زُيِّنَ

لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطيرِ المقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحَرْثِ ذلك مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا) وبالجملة فكل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا *

(بيان حقيقة الدنيا فى نفسها)

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للانسان فيها حظ وله فى اصلاحها شغل وانما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الأرض وما عليها قال الله تعالى (إِنَّا جعَلنا ما على الأرضِ زِينةً لها لِنَبْلُوَهم أيُّهُم أحسَنُ عَمَلاً) فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقرّ وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان (أما النبات) فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى (وأما المعادن) فيطلبها للالات والأوانى كالنحاس والرصاص وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقاصد (وأما الحيوان) فينقسم الى الانسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة وأما الانسان فقد يطلب الآدمى ليستخدم كالغلمان أو ليتمتع به كالجوارى والنسوان ويطلب قلوب الناس تملكها بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الذى يعبر عنه بالجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هي الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى فى قوله (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالبَنِينَ) وهذا من الأنس (وَالقَناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ) وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها

(وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ) وهى البهائم والحيوانات (وَالحَرْثِ) وهو النبات والزرع . فهذه هي أعيان الدنيا ألا إنّ لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبّه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلق بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرّياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هى الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهى الأعيان التى ذكرناها . العلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله باصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره . وهى جملة الصناعات والحرف التى الخلق مشغولون بها . والخلق انما نسوا أنفسهم وما بهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرّها علم أن هذه الأعيان التى سميناها دنيا لم تخلق الا لقوامه ليتقوّى بها على إصلاح دينه حتى اذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته وبقى ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لايجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فقد كانوا على المنهج القصد وعلى السبيل الواضح فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا إفراط بل كان أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحبّ الأمور الى الله تعالى *

كتاب ذم البخل

﴿ وذم المال ﴾

ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة . والمال بعض أجزائها الجدير بافراد البحث عنه . إذ فيه آفات وغوائل وللانسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان . يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفاقد حالتان القناعة والحرص واحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحريص حالتان طمع فيما فى أيدى الناس وتشمّر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شرّ الحالتين . وللواجد حالتان إمساك بحكم البخل والشح وانفاق واحداهما مذمومة والأخرى محمودة وللمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ونحن نشرحه بعونه تعالى *

﴿ بيان ذم المال وكراهة حبّه ﴾

قال الله تعالى (يَا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكم وَلا أَوْلادُكم عَنْ ذِكْرِ اللهِ ومَنْ يَفْعلْ ذلِكَ فأولئِكَ همُ الخاسِرُونَ) وقال تعالى (إنَّما أمْوَالكم وَأوْلادُكم فِتنةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أجْرٌ عظيمٌ) فمن اختار ماله وولده على ماعند الله فقد خسر وغبن خسرانا مبيناً . وقال تعالى (إنّ الإنْسانَ

لَيَطْغَى أن رَآهُ استَغنَى) فلا حول ولا قوَّة إلاّ بالله العلىّ العظيم . وقال تعالى (ألْهَا كُمُ التكاثُرُ) وقال صلى الله عليه وسلم (تَعِسَ عَبْدُ الدّينارِ وتَعِسَ عَبْدُ الدّرْهَمِ تَعِسَ ولا انتَعَشَ وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ) بين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجراً فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم وهو شرك الا أن الشرك خفى وجلى نعوذ بالله منهما . وقال صلى الله عليه وسلم (يَقولُ ابنُ آدَمَ مالى مالى وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلاّ ما أكلتَ فأفنَيْتَ أو لبستَ فأبلَيْتَ أو تَصدَّقت فأمْضَيْتَ) وقال صلى الله عليه وسلم (ماذِئبانِ ضارِيانِ ارْسِلا فى غَنمٍ بأكثَرَ إفساداً فيها مِنْ حُبّ الشّرَفِ والمالِ والجاهِ فى دينِ الرّجُلِ المُسلِمِ) وقال صلى الله عليه وسلم (هَلكَ المُكثِرُونَ إلاّ من قالَ بهِ فى عِبادِ اللهِ هكذا وهكذا وقَليلٌ ماهُمْ) وعن يحيي بن معاذ قال الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه ان لدغك قتلك سمّه قيل وما رقيته قال أخذه من حلّه ووضعه في حقه وعنه رحمه الله مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله *

* بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم *

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً فى مواضع من كتابه العزيز فقال جلّ وعزّ (إن تركَ خيرًا) وقال تعالى ممتناً على عباده (وَيُمدِدْكم بأموال وبنين وَيجْعلْ لكم جنّاتٍ وَيجْعلْ لكم أنهارا) وقال صلى الله عليه وسلم

(نِعمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالِحِ) ولا تقف على وجه الجمع بين الذّم والمدح إلاّ بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشرّ من وجه وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فانه ليس بخير محض ولا هو شرّ محض بل هو سبب الأمرين جميعاً وما هذا وصفه فيمدح تارة و يذم أخرى *

﴿ بيان تفصيل آفات المال وفوائده ﴾

قدمنا أن المال فيه خير وشرّ فمن عرف فوائده وغوائله أمكنه أن يحترز من شرّه و يستدر من خيره . أما الفوائد فدنيوية ودينية أما الدنيوية فمعروفة . وأما الدينية فتنحصر فى ثلاثة أنواع *

(النوع الأوّل) أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة كالسفر للحج والعلم وإما فيما يقويه على العبادة من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وضرورات المعيشة . وما لايتوصل الى العبادة إلاّ به فهو عبادة *

(النوع الثانى) مايصرفه الى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة . والمروءة ووقاية العرض . وأجرة الاستخدام (أما الصدقة) فلا يخفى ثوابها *

(وأما المروءة) فنعنى بها صرف المال الى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية واعانة وما يجرى مجراها فان هذه لايسمى صدقة بل الصدقة مايسلم الى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الاخوان والأصدقاء و به يكتسب صفة السخاء و يلتحق بزمرة الأسخياء فلايوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف و يسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضاً مما

يعظم الثواب فيـه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات واطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها . وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ودفع شرهم وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته فى العاجلة ـ من الحظوظ الدينية . ففى الحديث (ماوَقى بهِ المَرْءُ عِرضَهُ كُتِبَ لهُ بهِ صَدَقَةٌ) وكيف لا وفيـه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العـداوة التى تحمل فى المـكافأة والانتقام على مجاوزة حـدود الشريعة . وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التى يحتاج اليها الانسان كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته *

(النوع الثالث) مالا يصرفه الى انسان معين ولـكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين . وناهيك بها خيرا . فهذه جملة فوائد المال فى الدين *

(وأما الآفات) فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث (الأولى) أن تجر الى المعاصى فان المال يحرك داعية المعاصى وارتـكاب الفجور *

(الثانية) أنه يجر الى التنعم فى المباحات والتمرّن عليه حتى يصير مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنـه واذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى الكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه وذلك من شؤم المال

(الثالثة) أنه يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شـغل العبد

عن الله فهو خسران وأما الآفات الدنيوية فكثيرة كالخوف والحزن والغم والهم والتعب فى دفع الحساب وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه والفكر فى خصومة الشركاء ومنازعتهم . وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها . فاذا تريق المال أخذه من حلّه وصرفه فى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات نسأله تعالى السلامة والعون بلطفه وكرمه *

﴿ بيان ذمّ الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد ﴾

ينبغى للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى مافى أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان لئلا يتدنس بذلّ الحرص فيجره الى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو كانَ لابنِ آدَمَ وادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابتَغَى لهما ثالثاً) وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور (الأوّل) الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق وهو الأصل فى القناعة فان من كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة وفى الحديث (ماعالَ مَنِ اقْتَصَدَ) وعنه صلى الله عليه وسلم (ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشيَةُ اللهِ فى السّرّ والعَلانِيَةِ والقَصدِ فِي الغِنَى والفَقْرِ والعَدْلِ فى الرّضا والغَضَبِ) وعنه صلى الله عليه وسلم (الاقْتِصادُ وحُسنُ السَّمتِ والهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ عِشرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ) (الثانى) أن يتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه وان لم يشتد حرصه (الثالث) أن يعرف مافى القناعة من عزّ الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل والمداهنة.

(الرابع) أن يكثر تأمله فى تنعم الكفرة والحمق ثم ينظر الى أحوال الأنبياء والأولياء ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجّار أو الأبرار فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير

(الخامس) أن يفهم مافى جمع المال من الخطر كما ذكرنا فى آفات المال ويتم ذلك بأن ينظر أبداً الى من دونه فى الدنيا لا الى من فوقه ـ فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر الصبر *

(بيان فضيلة السخاء)

اعلم أن المال ان كان مفقودا فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وان كان موجوداً فينبغى أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشحّ والبخل فان السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من اصول النجاة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة منها ﴿ خُلُقانِ يُحِبُّهُما اللهُ تعالى حسنُ الخُلُقِ والسَّخاءُ وَخُلُقانِ يُبْغِضُهُما سُوءُ الخُلُقِ والبُخلُ وإذا أرادَ اللهُ بِعَبدٍ خيرًا استَعمَلَهُ فى قضاءِ حوائجِ الناس ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم (إنّ منْ موجِباتِ المَغفِرَةِ بَذلَ الطَّعامِ وإفشاءَ السَّلامِ وحُسْنَ الكلامِ) وقال أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل شيأ على الاسلام الا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه فقال ياقوم اسلموا فان محمدا يُعطى عطاء من لايخاف الفاقة . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ السَّخى قريبٌ منَ اللهِ قريبٌ منَ الناسِ قريب منَ

الجنة بعيدٌ من النارِ وإنَّ البخيلَ بعيدٌ منَ اللهِ بعيدٌ منَ الناس بعيدٌ منَ الجنة قريبٌ منَ النار . وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى اللهِ منْ عالِمٍ بخيل وأدْوَا الدَّاءِ البُخلُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ كلُّ معرُوفٍ صدَقةٌ وكل ما أنفقَ الرَّجلُ عَلى نفسهِ وأهلِهِ كُتِبَ لهُ صدَقةٌ وما وقى بهِ الرَّجلُ عِرضَهُ فَهُوَ لهُ صدَقةٌ وما أنفقَ الرَّجلُ مِن نفقةٍ فعلى اللهِ خلَفُها)وقال صلى الله عليه وسلم (كلُّ معرُوف صدَقةٌ والدَّالُ على الخيرِ كفاعِلِهِ واللهُ يُحِبُّ إغاثةَ اللّهفانِ) وعن الحسن بن على : الكرم هو التبرع بالمعروف قبل السؤال والاطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل . وعن عبد الله بن جعفر : أمطر المعروف مطرا فان أصاب الكرام كانوا له أهلا وان أصاب اللئام كنت له أهلا . ومن سخاء السلف ماحكي أن ابن عامر اشترى دارا بتسعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهلها فسأل فقيل يبكون لدارهم فقال ياغلام أيتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتي يتصدق على ثلثمائة وستين مسكيناً وعن أسماء بن خارجة أن عبد الملك سأله عن خصال حدث بها عنه فأجابه أسماء : مامددت رجلى بين يدى جليس لى قط ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوما الا كانوا أمنَّ علىَّ منى عليهم ولا نصب لى رجل وجهه قط يسألني شيأ فاستكثرت شيأ أعطيته اياه وعن الشافعي أن حماد بن أبى سليمان انقطع زره وهو راكب فمرَّ على خياط وأراد النزول فبادره الخياط وحلف عليه أن لا ينزل وأصلح له زره وهو راكب فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير وسلمها له واعتذر اليه من قلتها

قال الشافعى لاأزال أحب حمادا لما بلغنى عنه وأنشد الشافعى لنفسه *

يالهف قلبى على مال أجود به على المقلّين من أهل المروء آت

إنّ اعتذارى الى من جاء يسألنى ماليس عندى من احدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعى رحمه الله فقال يا ربيع اعطه أربعة دنانير واعتذر اليه عنى وقام رجل الى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى فقال له سعيد مايبكيك قال أبكى على الأرض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى وروى أن علياً كرّم الله وجهه بكى فقيل مايبكيك فقال لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني وروى أن رجلا أتى صديقا له فدق عليه الباب . فقال ما جاء بك قال علىّ أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه وعاد يبكى فسألته امرأته فقال ابكى لأنى لم أتفقد حاله حتى أحتاج الى مفاتحتى . فرحم الله مَنْ هذه أخلاقُهم وغفر لهم *

﴿ بيان ذم البخل ﴾

قال الله تعالى ﴿ ومَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئِكَ همُ المُفلِحُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يَحسَبَنَّ الّذينَ يَبْخَلونَ بِما آتاهمُ اللهُ مِن فَضلِهِ هُوَ خيرًا لهم بَلْ هُوَ شَرٌّ لهم سيُطَوَّقونَ ما بَخِلوا بِهِ يومَ القِيامَةِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إيّاكم والشُّحَّ فإنّهُ أهلَكَ مَنْ كانَ قَبلَكُمْ حَمَلَهُمْ على أن يَسفِكوا دِماءَهُم وَيَستَحِلُّوا مَحارِمَهُمْ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَخيلٌ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ يُبغِضُ البَخيلَ فى حَياتِهِ السَّخىَّ عِندَ

مَوتِهِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ خَصلَتانِ لا يَجتَمعانِ فى مُؤمِنٍ البخلُ وسُوءُ الخُلُقِ ﴾ وعن علىّ كرَّم الله وجهه : سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على مافى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تَنْسَوُا الفَضلَ بينَكُمْ ﴾ وقال الشعبي : لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الكذب . وقال بشر بن الحارث : البخيل لا غيبة له قال النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّكَ إذًا لَبخيلٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم لوفد بنى لِحْيان ﴿ مَنْ سَيِّدُكم ﴾ قالوا جد بن قيس الا أنه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ وأىُّ داءٍ أدوَءُ مِنَ البُخلِ ولكِنْ سَيِّدُكم عَمرُو بنُ الجمُوحِ ﴾ وكان عمرو يولم على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوَّج وعن علىّ رضى الله عنه قال : والله ما أستقصى كريم قط حقه قال الله تعالى ﴿ فلمّا نَبَّأت بهِ وأظهَرَهُ اللهُ عليهِ عَرَّفَ بَعضَهُ وأعرَضَ عَن بَعضٍ ﴾ وقال بشر النظر الى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال: ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه *

﴿ بيان الايثار وفضله ﴾

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم الى درجات فأرفع درجات السخاء الايثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه وانما السخاء عبارة عن بذل مالا يحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج . والبذل مع الحاجة أشد . وكما أن السخاوة قد تنتهى الى أن يسخو الانسان على غيره مع الحاجة . فالبخل قد ينتهى الى أن يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا

يتداوى ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لأكلها فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة . وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج اليه . فانظر مابين الرجلين فان الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الايثار درجة فى السخاء . وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِم ولو كانَ بِهم خَصاصةٌ ﴾ فقد روى أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيأ فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقد عجِبَ اللهُ مِن صَنيعِكُمُ اللَّيلةَ إلى ضَيفِكم ونزلَت ﴾ * ﴿ وَيُؤْثِرُون على أَنْفُسِهِم ولو كانَ بِهم خَصاصةٌ ﴾ فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى والايثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى ﴿ وَإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ *

قيل خرج عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه اذ أتى الغلامُ بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى اليه الثانى والثالث فأكله وعبد الله ينظر اليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم قال مارأيتَ قال فلم آثرتَ به هذا الكلب قال ماهى بأرض كلاب انه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى

هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ان هذا الغلام لأسخى منى فأشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه *

وقال عمر رضي الله عنه أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخي كان أحوج منى اليه فبعث به اليه فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع الى الأوّل *

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك ـ من أيام فتوح الشام ـ اطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار إلىّ أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى الىّ انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر فقال آه فأشار هشام انطلق به اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين *

﴿ بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما)

اعلم أن المال خلق لحكمة وهو صلاحه لحاجات الخلق . فيمكن امساكه عن صرفه الى ما خلق الصرف اليه . ويمكن بذله بالصرف الى ما لايحسن الصرف اليه . ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل . فالامساك حيث يجب البذل بخل . والبذل حيث يجب الامساك تبذير وبينهما وسط هو المحمود وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا

بالسخاء وقد قيل له ﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطها كلَّ البسْطِ ﴾ وقال تعالى ﴿ والَّذينَ إذا أنْفَقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُرُوا وكانَ بَينَ ذلِكَ قَواما ﴾ فالجود وسط بين الاسراف والاقتار وبين البسط والقبض وهو أن يقدّر بذله وامساكه بقدر الواجب ولا بدَّ أن يكون قلبه طيباً به غير منازع له فيه ثم أن الواجب بذله قسمان واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة والسخيّ هو الذى لايمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فان منع واحداً منهما فهو بخيل ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤدّيها ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع أو الذى يتيمّم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل *

ومن واجب المروءه ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات فان ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله استقبح منه مالايستقبح من الفقير من المضايقة ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لايستقبح مع الأجانب ويستقبح من الجار ما لايستقبح مع البعيد ويستقبح فى الضيافة من المضايقة مالايستقبح فى المعاملة وبالجملة فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ومن أدّى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرّأ من البخل نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات . فاصطناع المعروف

وراء ماتوجبه العادة والمروءة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع وليس بجوّاد فانه يشترى المدح بماله ومثله من يبعثه عليه الخوف من الهجاء أو ملامة الخلق فانه ليس من الجود لأنه مضطر اليه بهذه البواعث وهى أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد *

* بيان علاج البخل *

اعلم أن البخل سببه حب المال ولحب المال سببان (أحدهما) حب الشهوات التى لا وصول اليها إلا بالمال مع طول الأمل (الثانى) أن يحب عين المال ويلتذ بوجوده وان علم أنه زائد عن حاجاته بقية عمره وقدمنا أن علاج كل علة بمضادّة سببها فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ويعالج التفات القلب الى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو الى شرّ ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعّد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فانه مامن بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل البخيل من أصحابه فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج قلبه

أيضاً بأن يتفكر فى مقاصد المال وأنه لماذا خلق فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقى يدّخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل ان كان عاقلا . فاذا تحركت الشهوة فينبغى أن يجيب الخاطر الأوّل ولا يتوقف فان الشيطان يعده الفقر ويخوّفه ويصدّه عنه *

كتاب ذم الجاه والرياء

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال الله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فَساداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو فى الأرض وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الارادتين جميعاً وقال عزّ وجلّ ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أعمالَهم فيها وَهُمْ فيها لا يُبْخَسُونَ أُولئِكَ الَّذينَ لَيْسَ لَهُم فى الآخِرَةِ إلاّ النّارُ وحَبِطَ ماصَنَعُوا فيها وَباطِلٌ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ وهـذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فانه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وفى الحديث ﴿ حَسْبُ امْرِىءٍ مِنَ الشّرّ أن يُشيرَ النّاسُ إليهِ بالأصابعِ فى دينِهِ ودُنْياهُ إلاّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ . إنّ اللهَ لا يَنظُرُ إلي صُوَرِكم ولـكن ينظرُ إلى قُلوبكم وَأعمالِـكم ﴾

وروى فى فضيلة الخمول عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذِى طِمرَيْنِ لايُؤْبَهُ لهُ لو أقسمَ على اللهِ لأبَرَّهُ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ ألا أدُلُّكم على أهلِ الجَنّةِ كلُّ ضعيفٍ مُستضعَفٍ لو أقسمَ على اللهِ لأبَرَّهُ وأهلُ النّارِ كلُّ مُتكبّرٍ مُستكبرٍ جوّاظٍ ﴾ والأخبار فى مذمة الشهرة وفضيلة الخمول كثيرة . ومعلوم أن المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب . وحب الجاه منشأ كل فساد . ثم أن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عليها فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم *

﴿ بيان الحدّ الذى يباح فيه الجاه ﴾

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها أى القدرة على التصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه . فحكم الجاه حكم ملك الأموال فانه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ماخلق فى الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة . فحب الجاه والمال لأجل التوسل بهما الى مهمات البدن غيرمذموم وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لايوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمله الحب على مباشرة معصية وما لم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل الى اكتسابه بعبادة فان التوصل الى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدّين وهو حرام *

والقول الفصل فى طلب المنزلة والجاه في قلوب الناس أن يقال يطلب ذلك على ثلاثة أوجه . وجهان مباحان ووجه محظور (أما الوجه المحظور) فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوىّ أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة *

وأما أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ﴿ إجْعَلْنى عَلى خَزَائِنِ الأرضِ إنى حَفِيظ عَليمٌ ﴾ فانه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما وكان محتاجا اليه وكان صادقا فيه *

(والثانى) أن يطلب اخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر كالذى يخفى عمن يريد استئجاره أنه يشرب الخمر ولا يلقى اليه أنه ورع . فان قوله انى ورع تلبيس وعدم اقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب *

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فان ذلك رياء وهو ملبس إذ يخيل اليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصاً فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجرى مجرى اكتساب المال بالحرام من غير فرق وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه

بتزوير وخداع فان ملك القلوب أعظم من ملك الأموال *

﴿ سبب حب المدح وبغض الذم ﴾

لايعرف طريق العلاج لذلك مالم يعرف سببه لأن ما لايعرف سببه لا يمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض *

لحب المدح والتذاذ القلب به أسباب (الأوّل) وهو الأقوى شعور النفس بالكمال ومهما شعرت بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها (السبب الثانى) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك الممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ (الثالث) أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما اذا كان ممن يعتد بثنائه فى ملأ فيكون المدح ألذ والذم أشدّ على النفس . فأما العلة الأولى وهى استشعار الكمال ـ فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله كما اذا مدح بأنه نسيب أو سخىّ أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذّة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وما بعدها فان كان يعلم أن المادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوّه عن هذه الصفة بطلت اللذّة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه فبطلت اللذّات كلها *

﴿ بيان علاج حب الجاه ﴾

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد اليهم والمراءاة لأجلهم ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى مايعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لامحالة الى التساهل فى العبادات والمراءاة بها والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب فاذن حب الجاه من المهلكات فيجب علاجه وازالته عن القلب وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه ـ وهو كمال القدرة على قلوب الناس ـ ان صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات فلا ينبغي أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لا انقطاع لها وأما العمل فبأن يأنس بالخمول ليسقط من نفوسهم ويستعين عليه بالأخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول وينظر فى أحوال السلف وايثارهم ثواب الآخرة على زخرف الدنيا *

﴿ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ﴾

اعلم أن أكثر الخلق انما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على مايوافق رضا الناس رجاء المدح وخوفا من الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم فمن الأسباب استشعار الكمال بسبب

قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع الى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا فان كنت متصفا بها فان كانت كالثروة والجاه فهذه لاتستحق المدح فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرّياح وهذا من قلة العقل وان كانت كالعلم والورع فهذه وان استحقت المدح إلاّ أنه لا ينبغى الفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة . وان كانت الصفة التى مُدِحْتَ بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون *

ومن الأسباب . الحشمة التى اضطرت المادح الى المدح وهو أيضا يرجع الى قدرة عارضة لاثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأن آفات المدح على الممدوح عظيمة كما تقدّم فى آفات اللسان . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّة للمادح ﴿ وَيْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ ﴾ *

﴿ بيان علاج كراهة الذم ﴾

يفهم ذلك مما تقدّم والقول الوجيز فيه أن من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة . واما أن يكون صادقا ولكن قصده الايذاء والتعنت . واما أن يكون كاذبا . فان كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغى أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغى أن تتقلد منته . فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تتقيه فينبغى أن تفرح به وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان

قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فانه غاية الجهل . وان كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلا به لتقلع عنه وذلك من أسباب سعادتك فينبغى أن تفرح به لأن تنبهك بقوله غنيمة وجميع مساوئ الأخلاق مهلكة فى الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغى أن تغتنمه . وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك . فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرّر هو به *

(الحالة الثالثة) أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغى ألاّ تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر فى ثلاثة أمور *

(أحدها) ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه . وما ستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء عنه (والثانى) ان ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك وكل من اغتابك فقد أهدى اليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقرّبك الى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرّض لعقابه الأليم فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغى أن تقول اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَومى

اللّهُمَّ اهْدِ قَومى فإِنَّهُم لايَعلمُونَ ﴾ لما أن كسروا ثنّيته وشجُّوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد *

ومما يهوّن عليك كراهية المذمة قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبك . وأصل الدّين القناعة . وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه وما دام الطمع قائما كان حبّ الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك الى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة . ولا ينال ذلك إلا بهدم الدّين . فلا ينبغى أن يطمع طالب الجاه ومحب المدح ومبغض الذّم فى سلامة دينه فان ذلك بعيدٌ جداً *

﴿ بيان ذم الرياء ﴾

وهو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات . اعلم أن الرياء حرام . والمرائى عند الله ممقوت . وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار (أما الآيات) فقوله تعالى ﴿فوَيلٌ لِلمُصلّينَ الّذينَ هُم عَن صَلاَتِهِم ساهُون الّذينَ هم يُراؤُنَ﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿ والذينَ يمكُرُونَ السَّيّئاتِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَكرُ أولئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ قال مجاهد هم أهل الرّياء . وقال تعالى ﴿ إنَّما نُطعِمُكم لوَجهِ اللهِ لا نُريدُ مِنكم جزَاءً ولا شُكوراً ﴾ فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله والرياء ضدّه . وقال تعالى ﴿ فمَن كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبّهِ فليَعمَلْ عَملاً صالِحاً ولا يُشرِكْ بِعِبادَةِ رَبّهِ أحدًا ﴾ نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله (ومن الأحاديث) قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يقولُ اللهُ عزّ وجلّ مَن عَمِلَ لِى عَملاً أشرَكَ فيهِ غَيرِى فهُوَ لهُ كلهُ

وأنا منهُ بَرىء وأنا أغنَى الأغنياءِ عَنِ الشّركِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشّركُ الأصغرُ ﴾ قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال ﴿ الرّياءُ يقولُ اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامةِ إذا جازَ العبادُ بأعمالِهم إذهبُوا إلى الّذينَ كنتُم تُراءُونَ فى الدُّنيا فانظرُوا هل تجدُون عندَهمُ الجزاءَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يقبلُ اللهُ عزّ وجلّ عملاً فيهِ مثقالُ ذرّةٍ مِنْ رياءٍ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ أدنَى الرّياءِ شِركٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ فى ظلّ العرشِ يومَ لاظلّ إلاّ ظلّهُ رَجلاً تَصدّقَ بيمينِهِ فكانَ يُخفيها عَنْ شِمالِهِ ﴾ . ولذلك ورد ﴿ إن فَضْلَ عَملِ السرّ على عملِ الجهرِ بسبعين ضِعفًا ﴾ *

وروى أن المسيح عليه السلام كان يقول : إذا كان يومُ صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم . واذا أعطى بيمينه فَليُخفِ عن شماله . واذا صلى فليرخ ستر بابه *

ومن الآثار ماروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطئ رقبته . فقال : ياصاحب الرّقبة إرفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب انما الخشوع فى القلوب . ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك . وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم فان الله تعالى لا شريك له *

﴿ بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى به)

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس

بايرائهم خصال الخير . والمراءى به كثير ويجمعه خمسة أقسام وهى مجامع مايتزين به العبد للناس وهو البدن والزى والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة فأما الرياء في الدين بالبدن فكاظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدّين غلبةَ خوف الاخرة وكتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرّغ لتسريح الشعر ومثله خفض الصوت واغارة العينين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم أو متوقر للدين أو ضعيف القوة من الجوع وعن هـذا روى (إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه) لما يخاف عليـه من نزغ الشيطان بالرياء *

وأما الرياء بالهيئة والزى فمثل تشعيث الشـعر وحلق الشارب واطراق الرأس فى المشي والهدء فى الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها الى قريب من الساق وتقصير الأكمام كل ذلك يرائى به ليظهر أنه متبع للسنة ومقتد بالصالحين ومن ذلك لبس المرقعة والصـلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفيـة مع الافلاس من حقائق التصوّف فى الباطن ومنه التقنع فوق العمامة واسبال الرداء على العينين ومنه الطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم . والمراءون بالزىّ على طبقات . كل طبقة منهم يرى منزلته فى زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال الى مادونه والى مافوقه وان كان مباحا بل هو عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع

عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا *

وأما الرياء بالقول فرياء أهل الدّين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لاظهار شدّة العناية بأحوال الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق واظهار الغضب للمنكرات واظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام والمبادرة الى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لاظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد افحام الخصم *

وأما الرياء بالعمل فكمراءاة المصلى بطول القيام وطول السجود والركوع واطراق الرأس وترك الالتفات *

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال أن فلانا قد زار فلانا أو عابداً من العباد ليقال أن أهل الدّين يتبرّكون بزيارته ويتردّدون اليه أو أميراً من الأمراء ليقال أنهم يتبركون به وكالذى يكثر ذكر الشيوخ وطواف البلاد لينباهى عند خصمه فهذه مجامع مايراءى به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد لاعتقاده أنه نوع قدرة وكمال فى الحال وان كان سريع الزّوال لايغتر به إلاّ الجهال ولكن أكثر الناس جهال *

ومن المرائين من لايقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت ومنهم من يريد الاشتهار عند الأمراء لتقبل شفاعته فيقوم له جاه عند العامة ومنهم من يقصد

التوصل بذلك الى جمع حطام وكسب مال ولو كان من الحرام وهؤلاء شرّ طبقات المرائين *

﴿ حكم الرياء ﴾

إعلم أن الرّياء إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فأما المراءاة بما ليس من العبادات فقد تكون مباحة كتسوية العمامة والشعر وتحسين الثوب لئلا تزدريه أعين الناس واحترازا من ألم المذمة وطلبا لراحة الأنس بالاخوان وقد تكون طاعة كما اذا كان متبوعا وعمله المذكور يرغّب فى اتباعه واستمالة القلوب اليه وقد تكون مذمومة كما إذا حملت على ما لايجوز أو دعت الى أمور محظورات وبالجملة فحكمها تابع للغرض المطلوب بها . وأما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فالمرائى فيها يبطل عبادته ويعصى ويأثم والمعنى فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل اليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك * (الثانى) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله كما ورد ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وانما وقوفه لملاحظة جارية من جواريه أو غلام من غلمانه فان هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب اليه بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده . فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لايملك له ضرا ولا نفعا . وهل ذلك إلاّ لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرّب اليه من

الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأيُّ استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى فهذا من كبائر المهلكات ولذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ولو لم يكن فى الرّياء إلاّ أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وان لم يقصد التقرب الى الله فقد قصد غير الله وعن هذا كان شركا خفيا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلاّ من خدعه الشيطان وأوهم عنده ان العباد يملكون من مصالح حاله أكثر مما يملكه الله تعالى مع أن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لها ضرا ولا نفعاً فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا فكيف فى يوم ﴿ لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلودٌ هُوَ جازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْا ﴾ بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس . فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائي بطاعة الله فى سخط الله تعالى *

﴿ درجات الرياء ﴾

اعلم أن أغلظ أنواع الرياء هو الرياء بأصل الايمان وصاحبه مخلّد فى النار وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب وهذا هوالنفاق المذكور فى القرآن الكريم فى مواضع شتى وذلك مما يقل في زماننا. ويلحق به من يجحد الجنة والنار والدار الآخرة أو يعتقد طىّ بساط الشرع والأحكام ميلا الى أهل الاباحة أو يعتقد كفراً وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار *

وقسم من الرياء دون الأوّل بكثير كمن يحضر الجمعة أو الصلاة ولولا خوف المذمة لكان لايحضرها أو يصل رحمه أو يبرّ والديه لا عن رغبة لكن خوفا من الناس أو يزكى أو يحج كذلك فيكون خوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت *

وقسم يرائى بالنوافل يكسل عنها فى الخلوة ثم يبعثه الرياء على فعلها كحضور الجماعة وعيادة المريض واتباع الجنازة وصوم عرفة وعاشوراء خوفا من المذمة وطلبا للمحمدة ويعلم الله تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض وهذا أيضاً عظيم ولكن دون ماقبله *

وقسم يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطوّل القراءة فاذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين . وكذلك الذى يعتاد اخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرّدىء فاذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته . وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لاجل الخلق لا اكمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة . فهذا أيضاً من الرّياء المحظور لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق فان قال المرائى انما فعلت ذلك صيانة لالسنتهم عن الغيبة فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الامر كذلك فان ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدّين لكان شفقتك على نفسك أكثر *

وقسم يرائى بفعل مالا نقصان في تركه ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة

لعبادته كالتطويل فى الركوع والسجود ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة الى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه *

وقسم يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأوّل وتوجهه الى يمين الامام وما يجرى مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة *

فهذه درجات الرياء بالاضافة الى مايراءي به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم *

﴿ بيان المراءى لاجله ﴾

اعلم أن المرائى مقصودا لامحالة وانما يراءى لادراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض وله درجات (أشدها) أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالذى يراءى بعباداته ويظهر التقوى والورع وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى منصباً أو يسلم اليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه أو يودع الودائع فيأخذها أو يتوصل الى التحبب بامرأة لفجور ونحوه أو يحضر مجالس العلم والتذكير وقصده النظر لامرد فهؤلاء أبغض المرائين الى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته ويقرب منهم من يقترف جريمة وهو مصرّ عليها فيظهر التقوى لينفى التهمة عن نفسه *

(ثانيها) أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر العلم والعبادة ليرغب فى تزويجه أواعطائه فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وادراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص ولا يعدّ من الخاصة والزهاد ويعتقد انه من جملة العامة كالذى يمشي مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لامن أهل الوقار . وكذلك يسبق الى الضحك أو يبدو منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن ويقول ماأعظم غفلة الآدمى عن نفسه والله يعلم منه انه لو كان فى خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وانما يخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لابعين التوقير (وكالذى) يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب الى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لايفعل شيئا من ذلك (وكالذى) يعطش يوم عرفة أو عاشوراء فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس انه غير صائم أو يدعى الى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لايصرح بأنى صائم ولكن يقول لى عذر وهو جمع بين خبيثين فانه يرى انه صائم ثم يرى انه مخلص ليس بمراء وانه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال انه ساتر لعبادته ثم ان اضطر الى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا

بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان لانه محب للاخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الانسان من طعامه وقد ألحّ علىّ اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه ومثل أن يقول ان أبوىّ أو أحدهما يشفقان علىّ يظنان ان لو صمت لمرضت فلا يدعانى أصوم فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق الى الانسان الا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن (أما المخلص) فانه لايبالى كيف نظر الخلق اليه . فان لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيرُه ما يخالف علم الله فيكون ملبسا . وان كان له رغبة فى الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره . وقد يخطر له أن فى اظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين . وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهومن أشدّ المهلكات *

﴿ بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل ﴾

اعلم أن الرياء جلىّ وخفىّ فالجلىّ هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب . وهو أجلاه . وأخفى منه قليلا هو ما لايحمل على العمل بمجرده إلاّ أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف تنشّط له وخف عليه . وأخفى من ذلك مالايؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب . وأجلى علاماته أن يسرّ باطلاع الناس على طاعته فربّ عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل

كذلك ولكن إذا اطلع عليه الناس سرّه ذلك وارتاح له وروّح ذلك عن قلبه شدّةَ العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفيّ منه يرشح السرور ولولا التفات القلب الى الناس ماظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكنًّا فى القلب استكنان النار فى الحجر . فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور . ثم إذا استشعر لذّة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفيّ من الرياء حتى يتحرّك على نفسه حركةً خفيةً فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض أو بالشمائل كخفض الصوت وآثار الدموع وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لايريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا فى قضاء حوائجه وأن يسامحوه فى البيع والشراء وأن يوسعوا له فى المكان فان قصّر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعاداً فى نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التى أخفاها ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل مايتعلق بالخلق لم يكن خاليا عن شوب خفيّ من الرياء أخفى من دبيب النمل وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلاّ الصدّيقون *

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون فى اخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله فى يوم القيامة باخلاصهم إذ علموا أن الله لا يقبل فى القيامة إلا الخالص وعلموا شدّة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة وأنه يوم لاينفع فيه مال ولا

بنون ولا يجزى والد عن ولده *

فإذًا شوائب الرياء الخفيّ كثيرة لاتنحصر ومهماأدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فلو كان مخلصا لما بالى بالناس لعلمه أنهم لايقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب *

فان قلت فما نرى أحداً ينفك عن السرور اذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود و بعضه مذموم * فنقول السرور منقسم الى محمود ومذموم فالمحمود مثل أن يكون قصده إخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به والطافه به إذ لالطف أعظم من ستر القبيح واظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له لابحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ *

ومثل أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر وأجر السرّ بما قصده أوّلاً ومن اقتدى به فى طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شئ وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور *

ومثل أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم الى الطاعة فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله وعلامة الاخلاص فى هذا الورع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه

بحمدهم إيّاه . وأما السرور المذموم فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام فهذا مكروه *

﴿ بيان مايحبط العمل من الرياء وما لايحبط ﴾

إذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إمّا أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فان ورد بعد الفراغ سرور مجرّد بالظهور من غير إظهار فهذا لايفسد العمل اذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرّياء إلاّ إذا ظهرت له بعده رغبة فى الاظهار فتحدّث به وأظهره فهذا مخوف وفى الآثار والأخبار مايدل على أنه محبط وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل وكان عقد على الاخلاص فان كان مجرد سرور فلا يؤثر فى العمل وان كان رياء باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه الله والخالص مالايشوبه شئ فلا يكون مؤدّيا للواجب مع هذا الشوب . وأمّا الرياء الذى يقارن حال العقد كان يبتدئ الصلاة على قصد الرياء فان استمرّ عليه حتى سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولا يعتدّ بصلاته . وان ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام فالأرجح أنه لاتنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف لأن باعثه الرياء فى ابتداء العقد دون امتثال الأمر فلم ينعقد افتتاحه فلم يصح مابعده *

﴿ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه ﴾

عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ فى إزالته *

وفى علاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه (والثانى) دفع مايخطر منه في الحال *

﴿ المقام الاول فى قلع عروقه وأصوله ﴾

وأصله حب المنزلة والجاه واذا فصل رجع الى ثلاثة أصول وهي حب لذّة المحمدة . والفرار من ألم الذّم . والطمع فيما فى أيدى الناس . فهذه الثلاثة هى التى تحرك المرائى الى الرياء . وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله تعالى وما يتعرّض له من العقاب والمقت الشديد والخزى الظاهر . فمهما تفكر العبد في هذا الخزى وقابل مايحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا بما يفوته في الاخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فانه يسهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سمًّا أعرض عنه . ثم أى غرض له فى مدحهم وايثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع

والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلاّ الله ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم يخل عن المنة والمهانة فكيف يترك ماعند الله برجاء كاذب ووهم فاسد وقد يصيب وقد يخطئ واذا أصاب فلا تنى لذته بألم منته ومذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيأ مالم يكتبه الله عليه ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار ان كان من أهل الجنة ولا يبغضه إلى الله ان كان محمودا عند الله فالعباد كلهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فاذا قرَّر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه . فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء وأما الدواء العملى فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات واغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه الى طلب علم غير الله به *

﴿ المقام الثاني فى دفع العارض منه أثناء العبادة ﴾

وذلك لابد أيضاً من تعلمه فان من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فقد لايتركه الشيطان فى أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء . فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال ما لَكَ وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره فان هاجت الرغبة الى لذة الحمد ذكر مارسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت الالهى وخسرانه الأخروى *

﴿ بيان الرخصة فى قصد اظهار الطاعات ﴾

إعلم أن فى أسرار الأعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفى الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس فى الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن أن السر أحرز العملين ولكن فى الاظهار أيضاً فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السرّ والعلانية . فقال ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ والاظهار قسمان :

(أحدهما) في نفس العمل . والآخر بالتحدّث بما عمل (القسم الأوّل) اظهار نفس العمل كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه . فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سَنَّ سُنَّةً فَعَمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ ﴾ وتجرى سائر الأعمال هـذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره ولكن الاقتـداء فى الصدقة على الطباع أغلب . فالسر أفضل من علانيـة لاقدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السرّ ويدل على ذلك أن الله عزّ وجلّ أمر الأنبياء باظهار العمل للاقتداء وقوله عليه السلام ﴿ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ﴾ ولكن على من يظهر العمل وظيفتان :

(احـداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ظناً وربَّ رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وانما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغـير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب الى الرياء

والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة . وانما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به

(الثانية) أن يراقب قلبه فانه ربما يكون فيه حبّ الرياء الخفىّ فيدعوه الى الاظهار بعذر الاقتداء وانما شهوته التجمل بالعمل و بكونه مقتدى به . فليحذر العبد خدع النفس . فان النفس خدوع . والشيطان مترصد . وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات . فلاينبغى أن يعدل بالسلامة شيأ . والسلامة فى الاخفاء . وفى الاظهار من الاخطار مالايقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الاظهار أولى بنا و بجميع الضعفاء *

(القسم الثانى) أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم اظهار العمل نفسه . والخطر فى هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى فى الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذّة فى إظهار الدّعاوى عظيمة إلاّ أنه لو تطرّق اليه الرياء لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه . وتمّ اخلاصه . وصغر الناس فى عينه . واستوى عنده مدحهم وذمهم . وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به . والرغبة فى الخير بسببه . فهو جائز بل مندوب اليه ان صفت النية وسلمت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب فى الخير . والترغيب فى الخير خير . وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء *

﴿ بيان الخطأ فى ترك الطاعات خوفا من الرياء ﴾

من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائياً به وذلك غلط

وموافقة للشيطان وجر الى البطالة وترك للخير فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء والزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك الى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك بل ان قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهية الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى . وان لم يبق باعث دينى بل تجرّد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك *

﴿ بيان ما على المريد قبل العمل وبعده وفيه ﴾

اعلم أن أولى ما يُلزم المريدُ قلبَه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته . ولا يقنع بعلم الله إلا من لايخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله . فأمامن خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله فان كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبَه كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطرالتعرض للمقت واحباط العمل . وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة فان النفس تكاد تغلى حرصا على الافشاء فينبغي أن يثبت قدمه ويتذكرفى مقابلة عظم عمله ملك الآخرة ونعيم الجنة أبد الآباد وعظم غضب الله على من طلب بطاعته ثوابا من عباده . ثم يلزم قلبه ذلك بعدالفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به . واذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه فيكون شاكا في قبوله ورده مجوّزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها وردّ عمله بسببها ويكون هذا

الشك والخوف في دوام عمله و بعـده وأما فى الابتداء فيكون متيقنا أنه مخلص مايريد بعمله الا الله حتى يصح عمله وخوفه لذلك الشك جـدير بأن يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه *

والذى يتقرَّب الى الله بالسعي فى حوائج الناس وافادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمـد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة فى شـغل وخدمة أو مرافقة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردداً منـه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم ان لم يتوقع هو ولم يقصد إلاّ الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبـل خدمته فنرجو أن لايحبط ذلك أجره اذا كان لايريده ولا يستبعده منـه لو قطعه ويجب على المتعلم أن يلزم قلبـه حمد الله ويتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله لاليكون له فى قلبه منزلة ولا فى قلب الخلق فان العباد أمروا ألا يعبدوا إلاّ الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره *

وأما المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يُخْطِرَ بقلبه معرفةَ الناس زهـده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليـه العبادات فى خلوته به وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واسـتعظامهم لمحله وهو لا يدرى أنه المخفف للعمل عليـه . فاستشعار النفس عزّ العظمة فى القلوب يكون باعثاً في الخلوة فينبغى أن يلزم

نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلاّ كراهة ضعيفة إن وجدها فى قلبه فيردّها فى الحال بعقله وايمانه ولو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنىٌّ و الآخر فقيرٌ فلا يجد عند اقبال الغنى زيادة هزّة في نفسه لاكرامه إلاّ إذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغنى . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع *

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لاتنحصر ولا ينجيك منها إلاّ أن تخرج ماسوى الله من قلبك وتتجرّد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغّصة فى أيّام متقاربة *

كتاب ذم الكبر والعجب

﴿ ماورد فى ذم الكبر ﴾

قال تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ *

وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لايَدْخُلُ الجَنّةَ مَنْ كانَ فى قَلْبِهِ مِثْقال حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وقال عليه السلام ﴿ يَقُولُ اللهُ تَعالى الكِبْرِياءُ رِدائِى وَالعَظَمَةُ إزارِى فَمَنْ نازَعني وَاحِدًا مِنْهُما أَلْقَيْتُهُ فى جَهَنَّمَ وَلاَ أُبالِى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لايَدْخُلُ الجَنّةَ بَخِيلٌ وَلاَ جَبَّارٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إلى رَجُلٍ يجُرُّ إزارَهُ بطَرًا ﴾ وجاء فى فضل التواضع قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مازادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاّ عِزًّا وماتَواضَعَ أحَدٌ لِلّهِ إلاّ رَفَعَهُ اللهُ ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ طُوبى لِمَنْ تَواضَعَ فى غيرِ مَسكَنَةٍ وَأَنفَقَ مالاً جَمَعَهُ فى غيرِ مَعْصِيَةٍ . وَرَحِمَ أَهلَ الذّلّ والمَسكَنَةِ وَخالَطَ أَهلَ الفِقهِ وَالحِكمَةِ ﴾ وعنه عليه السلام ﴿ مَنْ تَواضَعَ لِلّهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمن تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ . وَمنِ اقْتَصَدَ أغناهُ اللهُ . وَمَن بَذَّرَ أفقَرَهُ اللهُ وَمن أكثَرَ ذِكرَ اللهِ أحبَّهُ اللهُ ﴾ *

وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ـ أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبىّ قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته *

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح وتلك الأعمال أكثر من أن تحصي وآفته عظيمة وغائلته هائلة وكيف لاتعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَيَدْخُلُ الجَنّةَ مَن فى قَلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ ﴾ وانما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها . وتلك

الأخلاق هى أبواب الجنة . والكبر وعزّة النفس يغلق تلك الأبواب كلها . لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين ولا يقدر على ترك الحقد ولا يقدر أن يدوم على الصدق ولا يقدر على ترك الغضب ولا يقدر على كظم الغيظ ولا يقدر على ترك الحسد ولا يقدر على النصح اللطيف ولا يقدر على قبول النصح ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وبالجملة فما من خلق ذميم إلاّ وصاحب العزّ والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزّه وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزّه فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه . وشرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين *

ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره . ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين بقوله ﴿ الكبرُ بَطْرُ الحَقِّ وَغمصُ الخَلْقِ ﴾ أى ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى وبطر الحق هو رده وهى الآفة الثانية . فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر ونازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعزّ والعظمة لا يليق الا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شئ فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير فمهما تكبر العبد فقد نازع الله

تعالى فى صفة لاتليق إلا بجلاله ومثاله أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ماتعاطاه. فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الثانية أن من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمّر لجحده فما ذاك إلاّ للترفع والتعاظم واستحقار غيره حتى تأبى أن ينقاد له وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ ﴾ فكل من يتضح له الحق على لسان أحد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك من تحمله الأنفة على قبول الوعظ كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنّمُ ﴾ *

﴿ بيان مابه التكبر ﴾

اعلم أنه لا يتكبر إلاّ من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلاّ وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى فالدينى هو العلم والعمل والدنيوى هو النسب والجمال والقوّة والمال وكثرة الأنصار فهذه سبعة أسباب *

(الأوّل العلم) وما أسرع الكبر الى بعض العلماء فلا يلبث أن

يستشعر فى نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه و يستحقر الناس و يستجهلهم و يستخدم من خالطه منهم وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم . وسبب كبره بالعلم أمران (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما في الحقيقة فان العلم الحقيقى ما يعرف به العبد ربّهُ ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر قال تعالى ﴿ إنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ *

(ثانيهما) أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيئُ الأخلاق . فانه لم يشتغل أوّلاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات فبقى خبيث الجوهر فاذا خاض فى العلم صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره . ولم يظهر فى الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلا . فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشرب به الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوّله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد مايتكبر به فازداد كبرا واذا كان الرجل خائفا مع علمه فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا *

(الثانى العمل والعبادة) وليس يخلو عن رذيلة الكبر واستمالة قلوب الناس العُبَّادُ فيترشح منهم الكبر فى الدّين والدُّنيا . أما فى الدُّنيا فهو أنهم

يتوقّعون ذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس . وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا سَمِعتمُ الرَّجلَ يَقولُ هَلَكَ النّاسُ فَهُوَ أهْلَكُهُمْ ﴾ وانما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنّه مزدَرٍ بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته . وكيف لا يخاف ويكفيه شرًّا احتقاره لغيره . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ كَفَى بِالمَرءِ شَرًّا أن يُحقِّرَ أخاهُ المُسلِمَ ﴾ وكثيرٌ من العُبَّاد اذا استخفَّ به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم الى أن يتحدّى ويقول سترون مايجرى عليه واذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد إلاّ الانتقام له مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبُّون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثمَّ أن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدُّنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدُّنيا ولا فى الآخرة . أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقمَ لهُ بما لم ينتقم لأنبيائه به . ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه . فهذه عقيدة المغترين . وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله بعض السلف بعد انصرافه من عرفات ﴿ كنْتُ أرجُو الرَّحمَةَ لجَمِيعِهِم

لولاَ كونِى فِيهم ﴾ فانظر الى الفرق بين الرجلين . هـذا يتقى الله ظاهراً وباطنا وهو وجل على نفسه مزدرٍ لعمله . وذاك يضمر من الرياء والكبر والغل ماهو ضحكة للشيطان به ثم أنه يمتن على الله بعمله . ومن آثار الكبر فى العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزّه عن الناس مستقذر لهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتي يضم انما الورع في القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ التّقوَى هَهنا ﴾ وأشارَ إلى صَدرِهِ فقد كان صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا كما قال تعالى ﴿ وَاخفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤْمِنينَ ﴾ *

(الثالث) التكبر بالحسب والنسب فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما وقديتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم وقد يجرى على لسانه التفاخر به فيقول لغيره من أنت ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ومع مثلى تتكلم . وقد روى أن أبا ذر رضي الله عنه قال قاولت رجلا عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فغضب صلى الله عليه وسلم وقال ﴿ يَا أَبَاذَرٍّ لَيسَ لاِبنِ البَيضاءِ عَلى ابنِ السَّوداءِ فَضلٌ ﴾ فقال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى فانظر كيف نبهه صلى الله عليه وسلم على أن ذلك جهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر إذ عرف أن العز لا يقمعه إلاّ الذل *

(الرابع) التفاخر بالجمال وذلك أكثر مايجرى بين النساء ويدعو ذلك الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس *

(الخامس) الكبر بالمال وذلك يجرى بين الأمراء والتجار فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنىّ الفقير ويتكبر عليه وكل ذلك جهل بفضيلة الفقر وآفة الغنى *

(السادس) الكبر بالقوّة وشدّة البطش والتكبر به على أهل الضعف

(السابع) التكبر بالاتباع والأنصار والعشيرة والأقارب فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته *

﴿ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه ﴾

﴿ أثر التواضع والتكبر ﴾

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ومنها أن لايمشى إلاّ ومعه غيره يمشى خلفه ومنها أن لايزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدّين وهو ضدّ التواضع ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلاّ أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته والتواضع خلافه روى

أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هى أول نومة نامها فقام وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر مانقص منى شئ وخير الناس من كان عند الله متواضعا ومنها أن لايأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال علىّ لاينقص الرجل الكامل من كماله ماحمل من شئ الى عياله ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وعلامة المتكبر فيه حرصه على التزين للناس للشهرة والمخيلة وأما طلب التجمل لذاته فى غير سرف ولا مخيلة فليس من الكبر . والمحبوب الوسط من اللباس الذى لايوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿كُلوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فى غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سبّ وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الأصل وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبىّ صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغى أن يقتدى به ومنه ينبغى أن يتعلم وقد قال ابن أبى سلمة قلت لأبى سعيد الخدرىّ ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال (يا ابن أخى كل لله . واشرب لله . والبس لله . وكلُّ شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف . وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان

يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . كان يحلب الشاة . ويخصف النعل . ويرقع الثوب . ويأكل مع خادمه . ويشترى الشئ من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده . يصافح الغنىّ والفقير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير . يجيب إذا دعى . ولا يحقر مادعى اليه . لين الخلق . جميل المعاشرة . طليق الوجه . شديد فى غير عنف . متواضع فى غير مذلة . جوّاد من غير سرف . رقيق القلب). (زادت عائشة رضى الله عنها) وأنه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً . ولم يبث الى أحد شكوى وان كانت الفاقة لاحبّ اليه من اليسار والغنى *

فمن طلب التواضع فليقتد به صلى الله عليه وسلم . ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين . فلا عزّ ولا رفعة إلاّ فى الاقتداء به *

﴿ بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع ﴾

اعلم أن الكبر من المهلكات . وازالته فرض عين . ولا يزول بمجرّد التمنى بل بالمعالجة وفى معالجته مقامان (أحدهما) قلع شجرته من مغرسها فى القلب (الثانى) دفع العارض منه بالأسباب التى قد يتكبر بها *

﴿ المقام الأول فى استئصال أصله ﴾

علاجه علمى وعملىّ . ولا يتم الشفاء إلاّ بمجموعهما . أما العملىّ فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى . ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر فانه مهما

عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلاّ التواضع واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله . أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول . وأما معرفته نفسه . فهو أيضاً يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله . فان فى القرآن علم الأوّلين والآخرين لمن فتحت بصيرته قال تعالى ﴿ قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ فقد أشارت الآية الى أوّل خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الانسان فهو أنه لم يكن شيأ مذكورا وقد كان فى حيّز العدم دهورا وأى شئ أخسّ من العدم ثم خلقه الله من أقذر الأشياء إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظما ثم كسا العظم لحما فهذا بداية وجوده فما صار شيأ مذكوراً إلاّ وهو على أخسّ الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا بل خلقه جماداً ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبيكمه قبل نطقه وبضلاله قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ثم امتن عليه فقال ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ وهذا اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى الموت . وانما خلقه من

التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد عدمها ليعرف خسة ذاته فيعرف بها نفسه وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّهُ ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لايليق الكبرياء إلاّ به جلّ وعلا فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أضعف الضعفاء . ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسةِ أوّلِه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله * نعم لو أكمله وفوّض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلّط عليه فى دوام وجوده الأمراض والآفات يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً يريد أن يعلم الشئ فيجهله ويريد أن يذكر الشئ فينساه ويريد أن ينسى الشئ ويغفل عنه فلا يغفل عنه ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع مايهواه فى دنياه . فهو مضطر ذليل . ان ترك بقى وان اختطف فنى عبد مملوك لايقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فأى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا وسط أحواله فليتأمله وأما آخره فهو الموت المشار اليه بقوله تعالي ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره . وعلمه وقدرته وحسّه وادراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لايبقى إلاّ شكل

أعضاؤه وصورته لا حسّ فيه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويأكل الدود أجزاءه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلا فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقه وأرض مبدله وجبال مسيّرة ونجوم منكدره وشمس منكسفه وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشوره فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما تنطق به أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلمّ الى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد مافيها من مخازيه فاذا شاهده قال ﴿ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ فهذا آخر أمره . وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح فضلا عن البطر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو

يلقى عذابا فمن هذا حاله في العاقبة إلاّ أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر حقاً يكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا فهذا هو العلاج العملى القامع لأصل الكبر وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه من شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أحوال الصالحين ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلاّ بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان وبالصلاة جميعاً وقيل الصلاة عماد الدّين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع وبالسجود وقد كان العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذّلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم وبه أمر سائر الخلق *

﴿ المقام الثانى ﴾

﴿ فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة ﴾

ذكرنا فى كتاب ذمّ الجاه أن الكمال الحقيقى هوالعلم والعمل فأماماعداه مما يفنى بالموت فكمالٌ وهميّ ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع أسبابه السبعة (الأوّل النسب) فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره .

ومن كان خسيساً فمن أين تجبر خسته بكمال غيره وبمعرفة نسبه الحقيقى أعنى أباه وجده فان أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب وقد عرّف الله تعالى نسبه فقال ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ﴾ فاذا كانَ أصله من التراب وفصله من النطفةفمن أين تأتيه الرفعة فهذا هو النسب الحقيقى للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب

(الثانى) الكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الى باطنه نظر العقلاء . ولا ينظر الى الظاهر نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال إذ خلق من أقذار ووكل به فى جميع أجزائه الاقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الاقذار وجماله لا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو سبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها (الثالث) الكبر بالقوة ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط الله عليه من العلل والامراض وانه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز أو أن شوكة لو دخلت فى رجله لاعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة فلاينبغي أن يفتخر بقوته ثم ان قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك بها البهائم *

(السبب الرابع والخامس) الغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الاتباع والأنصار والتكبر بالمناصب والولايات وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن

ذات الانسان وهذا أقبح أنواع الكبر فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلا وكم فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فأفّ لشرف يسبقه به يهودى أو يأخذه سارق فى لحظة فيعود ذليلا مفلسا *

(السادس) الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين (أحدهما) أن يعلم ان حجة الله على أهل العلم آكد وانه يحتمل من الجاهل مالا يحتمل عشره من العالم فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم (ثانيهما) ان يعرف ان الكبر لا يليق الا بالله عز وجل وحده وانه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع. واذا دعته نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطاياه لتصغر نفسه فى عينه وليلاحظ ابهام عاقبته وعاقبة الآخر فلعله يختم له بالسوء ولذاك بالحسنى حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه. ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه ويغضب لفسقه بل يبغضه ويغضب لربه اذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه (السابع) التكبر بالورع والعبادة وذلك فتنة عظيمة على العُبّاد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد قال وهب ابن منبّه: ماتم عقل عبد حتى يكون فيه خصال: وعد منها خصلة. قال: بها ساد مجده. وبها علا ذكره. أن يرى الناس كلهم خيرا منه. وانما الناس عنده فرقتان فرقة هى أفضل منه وأرفع. وفرقة هى شرّ منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه. وان رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو واهلك أنا. فلا تراه

الا خائفا من العاقبة . ويقول لعل برّ هذا باطن فذلك خير له ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال . وبرّى ظاهر فذلك شرٌّ لى فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . قال : فحينئذ كمل عقله . وساد أهل زمانه *

والذى يدلُّ على فضيلة هـذا الاشفاق قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى ﴿ إن الَّذينَ هُمْ مِن خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدؤوب على الاشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهار لاَ يَفْتُرُونَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقونَ ﴾ فمتى زال الاشفاق والحذر غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد *

فاذن مايفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب إلاّ أنّ النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها فعن هـذا لاينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعـمل وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس *

وبيانه أن يمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج مافي الباطن والامتحانات كثيرة . فمنها وهو أوّلها : أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه فان ظهر شئ من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والشكر له على تنبيهه فذلك يدلُّ على أن فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه . أمّا من حيث العلم فبأن يُذَكّر نفسَهُ خسةَ نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لايليق إلاّ بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز وبشكره على الاستفادة ويقول ما أحسنَ مافطنتَ لهُ وقد كنتُ غافلا عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتنى له فالحكمة ضالّة المؤمن فاذاوجدها ينبغى أن يشكر من دلّه عليها فاذا واظب على ذلك مرّات متواليـة صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليـه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر *

(الامتحان الثانى) أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم فان ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر *

وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجلس بينـه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر . فانّ ذلك يَخِفّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهـم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر باظهار التواضع أيضا بل ينبغى أن

يقدّم أقرانه ويجلس بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن *

(الامتحان الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ويمرّ الى السوق فى حاجة الرُّفقاء والأقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلاّ لخبث فى الباطن فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ماذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر *

(الامتحان الرابع) أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء *

وكل ذلك من أمراض القلوب وعلله المهلكة له ان لم تتدارك . وقد أهمل الناس طبَّ القلوب واشتغلوا بطبّ الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة والقلوب لاتدرك السعادة إلاّ بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلاّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ *

﴿ بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع ﴾

اعلم أن هـذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط فطرفه الذى يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذى يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعاً والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة وتخاسس فان (كلا طرفى قصد الأمور ذميم) وأحبُّ الأمور الى الله تعالى أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أى وضع

شيأ من قدره الذى يستحقه والعالم اذا دخل عليه دنىء فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهو أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطى كل ذى حق حقه فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال واجابة دعوته والسعي فى حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره ٭

﴿ بيان ذم العجب وآفاته ﴾

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْأً ﴾ ذكر ذلك في معرض الانكار وقال عزّ وجلّ ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ فرد على الكفار في اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صنعاً ﴾ وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شحٌ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ ﴾ وقال ابن مسعود (الهلاك في اثنتين القنوط والعجب) وانما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلاّ بالسعي والطلب والجد والتشمر والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعي وقد قال تعالى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا

أنفسكم ﴾ أى لاتعتقدوا أنها بارّة وقال تعالى ﴿ لاَ تُبْطِلوا صَدَقاتِكم بِالمَنّ وَالأذَى ﴾ والمنّ نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب *

﴿ بيان آفة العجب ﴾

اعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لاتخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها لظنه أنه مستغن عن تفقدها وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد فى إزالته بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والأعمال فانه يستعظمها ويمنّ على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها وذلك أن المعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عندالله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه ويخرجه العجب الى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها . وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصرّ على خطاياه *

فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح

نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته *

﴿ بيان علاج العجب على الجملة ﴾

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل وذلك أن المعجب بجماله أوقوته أو نسبه ومالايدخل تحت اختياره انما يعجب بما ليس اليه لأن كل ذلك من فضل الله وانما هو محل لفيضان جوده تعالى فله الشكر والمنة لا لك اذ أفاض على عبده مالايستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فاذن منشأ العجب بذلك هو الجهل وازالة ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفى العجب والادلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة قال الله تعالى ﴿ وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكم وَرَحمَتُهُ مازَكا مِنكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس ﴿ مامِنكُم مِنْ أحَدٍ يُنجيهِ عَمَلُهُ ﴾ قالوا ولا أنت يارسول الله قال ﴿ ولا أنا إلاّ أنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحمَتِهِ ﴾ ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها وأنّى لذى بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه فإذًا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب *

﴿ بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه ﴾

اعلم أن مجموع مابه العجب ثمانية أقسام (الأوّل) أن يعجب ببدنه

فى جماله وهيئته وصحته وقوته وحسن صوته وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه التفكر في أقذار باطنه فى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزّقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع *

(الثانى) البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه *

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدّين والدُّنيا وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره ويستقصر علمه وعقله وليعلم أنه ما أوتى من العلم إلاّ قليلاً وَإنِ اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله وينظر الى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدرى فان القاصر العقل لا يعلم قصور عقله فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فان من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه إلاّ الخير ولا يفطن

لجهل نفسه فيزداد به عجبا *

(الرابع) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آبائه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس ولقد شرّفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليشرف بما شرفوا به ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أيُّها النَّاسُ إنا خَلَقْنا كم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وَجعَلْناكم شعُوباً وَقَبائِلَ لِتعارَفوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿إنّ أكرَمكم عِندَ اللهِ أتقاكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ أذهَبَ عَنكم عبيةَ الجاهِلِيَّةِ ﴾ أى كبرها ﴿ كُلُّكم بنو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ ﴾ ولما نزل قوله تعالي ﴿ وَأنذِرْ عَشيرَتَكَ الأقرَبينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتي قال ﴿ يَافاطمَةُ بِنتُ مُحَمدٍ يَاصفِيّةُ بِنتُ عَبدِ المطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ إعملاَ لِأنفسِكما فإِنّى لاَ اغنِى عَنكما مِنَ اللهِ شيأً ﴾ فبين أنهم اذا مالوا الى الدُّنيا لم ينفعهم نسب قريش فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى والتواضع والا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والاشفاق *

(الخامس) العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدّين

وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في منكراتهم وما جروا على الناس من المحظورات فيشكر الله ان عصمه من تبعاتهم *

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما قال الكفار ﴿ نَحْنُ أَكثَرُ أَموَالاً وأولاداً ﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين لانغلب اليوم من قلة : وعلاجه ماذكرناه فى الكبر وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم وأن كلهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا . ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودفن وحده ذليلا مهانا ويسلمونه الى البلى والحيّات والعقارب ولا يغنون عنه شيأ ويهربون منه يوم القيامة ﴿ يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخيهِ وَامّهِ وَأَبيهِ وَصاحبَتِهِ وَبَنيهِ ﴾ فكيف تعجب بمن يفارقك فى أشدّ أحوالك ويهرب منك وكيف تتكل على من لاينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرّك *

(السابع) العجب بالمال كما أخبر تعالى عن ذاك الكافر اذ قال ﴿ أَنا أَكثَرُ مِنكَ مالاً وَأَعزُّ نَفَراً ﴾ وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال وكثرة حقوقه والى أن فى اليهود من يزيد عليه فى المال وينظر الى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم وكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير فى القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضعه فى حقه وأن مآل المتهوّر فى الجمع والمنع الى الخزى والبوار *

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ قال تعالى ﴿ أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ وقال تعالى ﴿ وَهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنونَ صُنعًا ﴾ وقد أخبر

رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا وكلٌّ معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون . وعلاجه أن يتهم رأيه أبدا لايغتر به إلاّ أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة (ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلاّ بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدٍّ وتشمير فى الطلب وممارسة للكتاب والسنّة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور) والصواب لمن لم يتفرَّغ لاستغراق عمره فى العلم أن لايخوض فى المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين * نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهَّال *

كتاب ذم الغرور

أن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة . ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا . و بقى فى العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلا . ولما كان الغرور أم الشقاوات . ومنبع المهلكات . لزم شرح مداخله ومجاريه . وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه (فالموفق من العباد . من عرف مداخل الآفات والفساد . فأخذ منها حذره . و بنى على الحزم والبصيرة أمره) *

﴿ بيان ذم الغرور وحقيقته ﴾

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُم الحَياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكم باللهِ الغرورُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلكِنَّكُم فَتَنْتُم أنفُسَكم وَتَرَبَّصتُم وَارْتَبْتُم وغَرَّتكمُ الأمانِيُّ ﴾ الآية كاف فى ذم الغرور وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ الكَيِّسُ من دَانَ نفسَهُ وَعَمِلَ لما بَعدَ المَوتِ والأحمَقُ من أتبعَ نفسهُ هَواها وتمنَّى عَلى اللهِ ﴾ فالغرور هو سكون النفس الى مايوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذا مغرورون وان اختلفت أصناف غرورهم *

وأشد الغرور غرور الكفار . وغرور العصاة والفساق. فأما غرور الكفار (١) فقد أشير اليه فى قوله تعالى ﴿ أُولئِكَ الَّذينَ اشتَرَوُا الحَياةَ الدُّنيا بِالآخِرَة فلا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذَابَ ولا هم يُنصَرُونَ ﴾ وعلاج هذا الغرور إمَّا التصديق بالايمان واما بالبرهان . أما التصديق بمجرد الايمان فهو أن يصدّق الله تعالى فى قوله ﴿ ما عِندَكم ينفَدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ ﴾ وفى قوله عزّ وجلّ ﴿ وما عِندَ اللهِ خيرٌ ﴾ وقوله ﴿ والآخِرَةُ خيرٌ وأبقى ﴾ وقوله ﴿ فلا تَغُرَّنَّكم الحَياةُ الدُّنيا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك

---

(١) يدخل فى الكفار الدهريَّة الطبيعية فهذا البحث والاحتجاج ينفعان فى القامهم الحجر فليكن على بال منك فانه مهم جدا اه مختصره

الله رسولا فكان يقول نعم فيصدّق . وهذا ايمان العامة . وهو يخرج من الغرور *

وأما المعرفة بالبيان والبرهان فان تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور بالتبصر فى دعوى الأنبياء والعلماء وتصديقهم فانه أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فانه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم و يعمل به ولو بقى معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لاعلم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر فى علمه بسببه . ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرّين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم . وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذّبوا الأنبياء . فكما أن قول الصبيّ والمعتوه لايزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغبيّ الذى استرقته الشهوات لايشكك فى صحة أقوال

الأنبياء والعلماء ـ وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لامحالة والغرور يزول به *

وأما غرور العصاة من المسلمين فبقولهم . إنّ الله كريم وَإنا نرجو عفوه : واتكالهم على ذلك واهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود فى الدّين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصى العباد فى بحار كرمه وانّا موحدون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستدرجاتهم التمسك بصلاح الآباء وعلوّ رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . أينسى المغرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة فلم يُرِدْ فكان من المغرقين ﴿ قالَ رَبِّ إنَّ ابنى مِنْ أهلِى ﴾ فقال تعالى ﴿ يانوحُ إنّهُ لَيْسَ مِنْ أهلِكَ إنّهُ عَمَلٌ غيرُ صالِحٍ ﴾ وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه . ويَرْوَى بشرب أبيه . ويصير عالما بعلم أبيه . ويصل الى الكعبة ويراها بمشى أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيأ وكذا العكس *

﴿ بيان الغلط فى تسمية التمنى والغرور رجاءً ﴾

(فان قلت) فأين الغلط في قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجو

رحمته ومغفرته وقد قال : أنا عند ظن عبدى بي (فالجواب) أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال ﴿ الكيّسُ مَنْ دَانَ نَفسَهُ وعَمِلَ لما بَعدَ المَوتِ وَالأحمَقُ مَنْ أتبعَ نَفسَهُ هَوَاها وَتمنَّى عَلى اللهِ الأمانِى ﴾ وهـذا هو التمنى على الله تعالى غيَّر الشيطان اسمه فسمّاه رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إنّ الَّذينَ آمنوا وَالَّذينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللهِ أُولئِكَ يَرجُونَ رَحمَةَ اللهِ ﴾ يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جَزَاءً بِما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإنَّما تُوَفّوْنَ أُجُورَكم يَومَ القِيامةِ ﴾ أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعـد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأوانى وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا . وهـذا للفرق بين الرجاء والغِرة . قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال : هيهات هيهات . تلك أمانيّهم يترجحون فيها . من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه *

وكما أن الذى يرجو فى الدُّنيا ولدا وهو بعدُ لم ينكح فهومعتوه فكذلك من رجا رحمة الله ولم يعمل صالحا ولم يترك المعاصى فهومغرور . فكما أنه إذا نكح بقى متردداً فى الولد يخاف ويرجو فضـل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم الى أن يتم فهو كيّس . فكذلك إذا آمن

وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لايقبل منه ويرجو أن يثبته حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لايميل الى المعاصى فهو كيّس . ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وَسَوْفَ يَعلمُونَ حِينَ يَرَونَ العَذَابَ مَنْ أضَلُّ سَبِيلاَ ﴾ *

﴿ موضع الرجاء المحمود ﴾

فان قلت فأين موضع الرجاء المحمود فاعلم أنه محمود فى موضعين *

(أحدهما) فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال تعالى ﴿ وَإنّى لَغفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمنَ وَعَمِلَ صالِحا ثمّ اهتَدَي ﴾ فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور *

(الثانى) أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاطُ العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكّر قوله تعالى ﴿ قَدْ أفْلَحَ المؤْمِنونَ الّذينَ هُم فى صَلاَتِهِمْ خاشِعُونَ ﴾ الآيات *

فالرجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثانى يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر (فكل توقعٍ حَثّ على توبةٍ أو على تشمرٍ فى

العبادة فهو رجاء . وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا الى البطالة فهو غِرّة) كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل ففتره الشيطان عن التوبةوالعبادةوقال له لكرب كريم فهذا غرّة وعندهذا يجب أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وأنه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبد الآباد وقد خوّفنى عقابه فكيف لاأخافه وكيف أغترّ به *

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لايبعث على العمل فهو تمنّ وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدُّنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى واهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور وقد كان السلف يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصي وانهماكهم فى الدُّنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد قال تعالى ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ . ذَلِكَ لِمَن خافَ مَقامِى وَخافَ وَعِيدِ ﴾ والقرآن من أوّله الى آخره تحذير وتخويف لايتفكّر فيه متفكّر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه *

﴿ بيان بعض أصناف المغترين ﴾

فمنهم فرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان لا يعذب مثلهم ولو نظروا بعين البصيرة لعلموا ان العلم انما يراد لمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد الا للعمل وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل وقد ورد فيمن لا يعمل بعلمه ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثمَّ لَمْ يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسْفارًا ﴾ فأى خزى أعظم من التمثيل بالحمار *

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب العلا وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يَنظُرُ إلى صُوَرِكُمْ ولاَ إلى أمْوالِكُمْ وَإنَّما ينظُر إلى قلوبِكمْ وأعمالِكُمْ ﴾ فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء قبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة *

وفرقة اقتصروا على علم الفيصل فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها

وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة ولاالبطن عن الحرام ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورن من وجهين من حيث العمل ومن حيث العلم اما من العمل فقد قدمنا أولا وجه الغرور فيه ومثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكرارها وتعليمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى ان ذلك يغنى عنه من مرضه شيأ هيهات هيهات . فلا بد من شربه وصبره على مرارته . على انه بعدُ على خطر من شفائه *

وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم المعاملات وظن انه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن فى المحدثين وقال : انهم نقلة أخبار وحملة أسفار لايفقهون وترك أيضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فان الفقه هو الفقه عن الله وَمعرفة صفاته المَخوفة والمرجوّة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى ﴿ فَلَولاَ نَفَرَ مِنْ كلّ فِرْقَةٍ مِنهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا اليهِمْ لعَلّهُمْ يَحْذَرُون ﴾ والذى يحصل به الانذار غير هذا العلم *

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم فى أخلاق النفس والزهد والاخلاص وهم مغرورون يظنون بأنفسهم انهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقدصاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عندالله لحرصهم

على السمعة وحسدهم لمن يتقدّمهم من أقرانهم وغيظهم على من يثنى على معاصريهم وجمعهم لحطام الدُّنيا فهؤلاء أعظم الناس غِرّة *

وفرقة منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدُّنيا فهم يحفظون الكلمات ويؤدُّونها من غير إحاطة بمعانيها ولو فى الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزُّهاد فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفوراً له من غير أن يحفظ باطنه عن الآثام وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم *

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة فأفنوا أعمارهم فى ذلك وأعرضوا عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها كمن ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذ المقصود من الحروف المعانى وانما الحروف أدوات فاللب هو العمل والذى فوقه كالقشر للعمل فالقانعون به مغترُّون إلاّ من اتخذه منزلا فلم يعرج عليه إلاّ بقدر حاجته فتجاوزه حتى وصل إلى لباب العمل فحمل نفسه عليه فصفاها من الشوائب والآفات *

﴿ غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة ﴾

منهم فرقة تعمقوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذى يغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضي المحكوم بطهارته فى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء

إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام *

ومنهم فرقة غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ـ على زعمه ـ وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه ـ على زعمهم ـ يفعلون ذلك فى أوّل الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم *

وفرقة تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح المخارج فى جميع صلاته لايهمه غيره ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلاّ بما جرت به عادتهم فى الكلام . ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرّة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل *

وفرقة اغتروا بقراءة القرآن فيهذرمونه هذرمة وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرّة ولسان أحدهم يجرى وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر في

معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه . فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن المهمهة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه إلاّ أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه. وحفظه يراد لمعناه . ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغترّ باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وانما هى لذته فى صوته فليتفقد قلبه . وليخش ربه *

وفرقة اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبواطنهم عن الحرام عند الافطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لايقوم بحقه وذلك غاية الغرور *

وفرقة اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الاسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ولا يحذرون من الرفث والخصام ثم يحضر البيت بقلب ملوّث بذميم الأخلاق

لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور *

وفرقة جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفه ان فلانا مجاور بمكة وتراه يقول قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ثم أنه قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس ويظهر فيه الرياء

وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال أنه من المجاورين الزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور *

وفرقة زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد أو المدارس وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب بالرياسة والجاه أما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذّاتها الرّياسة وأن الراغب فيها لابدّ وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق. وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الناس وينظر اليهم بعين الاستحقار ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده فهو راغب فى حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لايخلو عن توقير الأغنياء وتقديمهم

على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين الى غيره وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفى العُبَّاد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرّياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذى تقوى وخلقٌ واحدٌ من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدّق به وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه *

وفرقة حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى و بصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذّة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها فى أوّل الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ﴿ ما تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إلىَّ بِمِثْلِ أدَاءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ﴾ *

﴿ غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة ﴾

ففرقة منهم اغتروا بالزىّ والهيئة والمنطق فيجلسون على السجادات مع إطراق الرأس وادخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض

الصوت فى الحديث ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأمنها *

وفرقة ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب . ولا يَعْرِف هذه الأمور إلاّ بالأسامى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامّات كلمات فهو يردّدها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأوّلين والآخرين . فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدّثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردّدها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن سر الأسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ويقول أنهم عن الله محجوبون ويدّعى لنفسه الوصول الى الحق وأنه من المقرّبين وهو عند الله من المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين . لم يحكم قط علما . ولم يهذّب خلقا . ولم يرتّب عملا . ولم يراقب قلبا . سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه *

وفرقة وقعت فى الاباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يقول ان الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لاوزن لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله . وانما نخوض فى الدنيا

بأبداننا وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبيـة فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبـة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوّتهم فيها وكل هذا من وساوس يخدعهم الشيطان بها . والاباحية من الكفار المارقين. نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين *

وفرقة ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخـذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال فيجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم . وما باعثهم إلاّ الرياء والسمعة *

وثمة فرق أخر لايحصى غرورها . والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول *

﴿ غرور أرباب الأموال ﴾

والمغترون منهم فِرَق ففرقة منهـم يحرصون على بناء المساجد وما يظهر للناس ليتخلد ذكرهم أو يذيع صيتهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد يكون بناؤها من جهات محظورة تعرضوا لسخط الله في كسبها وكان الواجب ردها إلى ملاكها إما بأعيانها واما رد بدلها عنـد العجز . وقد يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة أن لايظهر ذلك للناس فيكون غرضهم فى البناء الرياء وجلب الثناء مع أن صرف المال الى من فى جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل وأولى

من الصرف الى المساجد وزينتها . فما خف عليهم الصرف الى المساجد إلاّ ليظهر ذلك بين الناس . وهناك محظور آخر وهو أنه قد يصرف المال الى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهى عنها لشغلها قلوب المصلين والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين فوبال ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات مع أنه تعرَّض لما لا يُرضى الله تعالى *

وفرقة ينفقون الاموال فى الصدقات على المساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر وافشاء المعروف . ويكرهون التصدق فى السرّ ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على انفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : (فى آخر الزّمان يكثر الحاج بلا سبب . يهون عليهم السفر . ويبسط لهم فى الرزق . ويرجعون محرومين مسلوبين . يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لا يواسيه) وقال أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودّع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتأمرنى بشئ فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفى درهم قال بشر فأى شئ تبتغى لحجتك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة أنفس مديون يقضى دينه . وفقير

يرم شعثه . ومعيل يحيي عياله . ومربى يتيم يفرحه . وان قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل . فان ادخالك السرور على قلب مسلم واغاثة اللهفان وكشف الضر واعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام . قم فاخرجها كما أمرناك . والا فقل لنا مافى قلبك فقال يا أبانصر سفرى أقوى فى قلبى . فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له (المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لايقبل إلاّ عمل المتقين) *

وفرقة من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لايحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن . وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج الى قمعه باخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء . ومن قتلته الحية متى يحتاج الى دواء ولذلك قيل لبشر أن فلانا الغنىّ كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره وانما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء *

وفرقة غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلاّ بأداء الزكاة فقط ثم أنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء

من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم أو من يحتاجون اليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون الى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . وغرور أصحاب الأموال لايحصى وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور *

وفرقة أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً . وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فاذا قَصّر عن الأداء الى ذلك الغير فلا قيمة له وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه . ويقول ياسلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع مايجرى أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لايغنى عنه من مرضه وجوعه شيأ فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغنى من الله شيأ فكل وعظ لم يغيّر منك صفةً تغييرًا يغيّر

أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدُّنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا *

(فان قلت) ماذكرته من مداخل الغرور أمر لايمكن الاحترازمنه إذ لايقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات (قلت) الانسان إذا فترت همته فى شئ أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق فى الوصول الى الغرض حتى أن الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق فى جوّ السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى كل ذلك لأنه همَّه أمر دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلاّ شغل واحد وهو تقويم قلبه ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا وليس ذلك بمحال لانه شئ لم يعجزعنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت ارادته وقويت همته بل لايحتاج الى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدُّنيا ونظم أسبابها *

(فان قلت) قد قربت الامر فيه مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لابدّ منها . أما العقل فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الانسان حقائق الأشياء لأن أساس السعادات كلها العقل والكياسة . وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه ويعرف

الدنيا والآخرة . فاذا عرف ذلك ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدّة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره مايوصله الى الله تعالى وينفعه فى الاخرة واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا والجاه والمال (وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة . وهوى نفسه أحب اليه من رضاء الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور) فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن العادات اسرار المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله فان المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك إلاّ بالمعرفة التى ذكرناها * نسأل الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة *

كتاب التوبة

﴿ حقيقة التوبة ﴾

اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور : علم . وحال . وفعل والأوّل موجب للثانى والثانى موجب للثالث ايجابا اقتضاه سنة الله فى الملك والملكوت . أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها سموما مهلكة وحجابا بين العبد و بين كل محبوب . فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالبٍ على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبو به تألم . فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبو به ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال و بالماضى و بالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذّنب المفوّت للمحبوب الى آخر العمر . وأما بالماضى فبتلافى مافات بالخير والقضاء ان كان قابلاً للخير . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك يطلق اسم التوبة على مجموعها . وكثيرًا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدّمة والترك كالثمرة . وبهذا الاعتبار جاء في الأثر (الندم توبة) إذ لايخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه *

﴿ بيان وجوب التوبة وفضلها ﴾

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات وهو واضح بنورالبصيرة عند من شرح الله بنور الايمان صدره فان من عرف أن لاسعادة فى دار البقاء إلاّ فى لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشتى لا محالة محولٌ بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أن لا مبعد عن لقاء الله إلاّ اتباع الشهوات ولا مقرّب من لقائه إلاّ الاقبال على الله بدوام ذكره وعلم أن الذنوب سبب كونه محجوبا مُبعَدًا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب . وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم . وهكذا يكون الايمان الحاصل عن البصيرة ومن لم يترشح لهذا المقام فيلاحظ ماورد من الآيات والآثار فقد قال تعالى ﴿ وَتوبوا إِلَى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمِنونَ لَعَلّكُم تُفلِحُونَ ﴾ وهذا أمر على العموم وقال تعالى ﴿ يَا أيُّها الَّذينَ آمنوا توبوا إلى اللهِ تَوبَةً نَصُوحاً ﴾ ومعنى النصوح الخالصُ لله تعالى خاليا عن الشوائب *

ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهّرِينَ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ التّائِبُ مِنَ الذّنْبِ كَمَنْ لاذَنْبَ لهُ ﴾ والأخبار فى ذلك كثيرة *

﴿ وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام ﴾

لايخفى أن وجوبها على الفور أمر لايستراب فيه إذمعرفة كون المعاصى

مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وذلك لكون الزنى مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت كسائر المعاصى لأنها للايمان كالمأكولات المضرَّة للأبدان فكما أنها تغيّر مزاج الانسان ولا تزال تجتمع حتى تفسده فيموت دفعة كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين *

وأما وجوب التوبة على الدَّوام وفى كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . فان خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب . فان خلا في بعض الأحوال عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله . فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب . وترك أسبابه بالتشاغل بضدّها رجوع عن طريق الى ضده . والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصوَّر الخلوّ فى حق الآدمىّ عن هذا النقص وانما يتفاوتون بالمقادير فأما الأصل فلا بدَّ منه ولهذا قال عليه السلام : ﴿ إنَّهُ لَيُغانُ عَلى قَلْبى حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فى اليَوْمَ واللَّيلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخّرَ ﴾ واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره *

وانما أطلقنا الوجوب فى كل حال والتوبة عن بعض ماذكر من الفضائل

لاالفرائض لأنا نعنى بالواجب مالابد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوّع أى لمن تريدها فانه لايتوصل اليها إلاّ بها *

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لايخلو فى مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك مامضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نَفَس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينا كما يصير بُخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى ﴿ كَلاّ بَل رَانَ عَلى قُلوبِهِم ما كانوا يَكسِبُونَ ﴾ فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل بل لابدّ من محو تلك الأريان التى انطبعت فى القلب . كما لا يكفى فى ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها فى المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام ﴿ أتْبع ِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُها ﴾ فاذا لايستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارُها

آثارَ تلك السيئات *

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلاّ على تفويت مامضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله وانما قال هذا لأن العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بلَ كل نَفسٍ جوهرة نفيسة لاخلف لهاولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبيناً فان كنت لاتبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة . ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى ﴿ وأنفِقوا مِمَّا رَزَقناكم مِنْ قَبلِ أن يَأتِىَ أحدَكم المَوتُ فيقولَ رَبّ لولاَ أخرّتَنِى إلى أجلٍ قَرِيبٍ فأصدَّقَ وأكُنْ مِنَ الصَّالحينَ ولَنْ يُؤَخّرَ اللهُ نَفساً إذا جاءَأجلُها ﴾ وقد قيل فى معنى الآية أنه يقول حالتئذ ياملك الموت أخرنى يوماً أتوب فيه الى ربى وأتزوَّد صالحا لنفسى فيقول فنيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتزهق نفسه ولمثل هذا يقال ﴿ وَلَيستِ التّوبَةُ لِلّذِينَ يعمَلونَ السَّيّئاتِ

حتّى إذا حضَرَ أحدَهُمُ الموتُ قالَ إنّى تُبتُ الآنَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنّما التّوبَةُ على اللهِ لِلّذِينَ يَعملونَ السُّوءَ بِجَهالة ثمَّ يتوبونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ أتبعِ السّيّئَةَ الحَسنَةَ تمحُها ﴾ ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو (الثانى) أن يعاجله المرض أوالموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو فيأتى الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلاّ من أتى الله بقلب سليم *

﴿ بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة ﴾

اعلم أن التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة فان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه . وكل قلب زكىّ طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلىّ الذى لامردَّ له وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿ قَدْ أفْلحَ مَنْ زَكّاها ﴾ *

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام

لايزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لايزول الاّ أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا مالم يغيّر صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية *

هذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه ببعض آيات وأخبار (فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به) قال تعالى ﴿ غافِرِ الذّنْبِ وَقابِلِ التّوبِ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذى يَقْبَلُ التّوبَةَ عَنْ عِبادهِ وَيَعفو عَنِ السَّيّئاتِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ الله عزّ وَجلّ يَبسِطُ يدَهُ بالتّوبَةِ لمُسيءِ اللّيلِ إلى النّهارِ ولمُسيءِ النّهارِ إلى اللّيلِ حتّى تَطلُعَ الشّمسُ مِن مَغرِبِها ﴾ و بسط اليد كناية عن طلب التوبة وقال صلوات الله عليه ﴿ التّائبُ مِنَ الذّنبِ كَمَن لاذَنبَ لهُ ﴾ *

﴿ بيان ما تكون عنه التوبة وهى الذنوب ﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشئ إلا بعد معرفته . واذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل اليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذًا واجبة . والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أوفعل *

ثم أن مثارات الذنوب تنحصر فى أربع صفات صفات ربوبية وصفات

شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية *

فأما ما يقتضى النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر وحب المدح والثناء وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التي هى كالأمهات لأكثر المعاصى *

(الثانية) هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدّعوة الى البدع والضلال *

(الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الايتام وجمع الحطام لأجل الشهوات *

(الرابعة) الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرغ عنها جمل من الذنوب *

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع . وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين . وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة الى

بيان تفصيل ذلك فانه واضح *

﴿ انقسام الذنوب الى صغائر وكبائر ﴾

اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر . وقد كثر الاختلاف فيها فقال قائلون لاصغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة . وهـذا ضعيف إذ قال تعالى﴿ إن تَجتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنهَونَ عَنهُ نُكَفِّرْ عَنكم سَيِّآتِكُم وَنُدخِلْكُم مُدخَلاً كَرِيماً ﴾ وقال تعالى ﴿ الَّذينَ يَجتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثمِ وَالفَواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ ﴾ وقال بعض السلف كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقد روى عن الصحابة والتابعين فى عدد الكبائر أقوال . وذهب أبو طالب المكي الى أنها سبع عشرة جمعها من الأخبار والآثار :

(أربعة فى القلب) وهى الشرك بالله . والاصرار على معصيته . والقنوط من رحمته والأمن من مكره (وأربع فى اللسان) وهى شهادة الزور . وقذف المحصن والسحر . واليمين الغموس . وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التى يقتطع بها مال امرء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى النار (وثلاث فى البطن) وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب . وأكل مال اليتيم ظلما . وأكل الربا وهو يعلم (واثنتان فى الفرج) وهما الزنا واللواط (واثنتان فى اليدين) وهما القتل والسرقة (وواحدة فى الرجلين) وهو الفرار من الزحف أن يفر الواحد من اثنين والعشرة من العشرين (وواحدة فى جميع الجسد) وهو عقوق الوالدين وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما

وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وأن يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما . هذا كلام أبي طالب وهو قريب إلاّ أنه لم يرد تفصيلها بعدّ ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع الى مايعلم استعظامه إيَّاها والى مايعلم أنها معدودة فى الصغائر والى مايشك فيه فلا يدرى حكمه وربما قصد الشارع الابهام ليكون العباد على وجل وحذر فلا يتجرّؤن على الصغائر . ثم أن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع مجاهداً نفسه فان امتنع لعجز أوخوف فهذا لا يصلح للتكفير أصلا ٭

﴿ بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب عليها العبد ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر لو صبّ عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ خَيْرُ الأَعمالِ أدوَمُها وَإِنْ قَلَّ ﴾ ومنها أن يستصغر الذنب . فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى . وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامَهُ يصدر عن نفور القلب عنه وذلك النفور يمنع من شدّة تأثره به واستصغارَهُ يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدّة الأثر فى القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات.

وقد روى أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ مرَّ على أنفه فأطاره . وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامىّ فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف . لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح بها فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها فى تسويد قلبه كمن يقول أما رأيتنى كيف مزّقت عرضه وكيف فضحته حتى خجلته وكيف روَّجت عليه الزائف وكيف خدعته فهذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله إيَّاه ولا يدرى أنه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال إثما فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله به . وذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جناية فتغلظت به فان انضاف الى ذلك ترغيب الغير فيه صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه وفى الخبر ﴿مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْأً﴾ وكما يتضاعف وزر العالم على الذنب فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبعوا *

فحركات المقتدى بفعالهم فى طور الزيادة والنقصان . تتضاعف آثارها

إمّا بالربح وَإمّا بالخسران *

﴿ تمام التوبة وشروطها ودوامها ﴾

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً فالندم هو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب . وعلامته طول الحسرة والحزن واسكاب الدمع والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده طال عليه مصيبته وبكاؤه . وأى عزيز أعز عليه من نفسه . وأى عقوبة أشد من النار . وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى . وأى مخبر أصدق من الله ورسوله . ولو حدّثه انسان واحد يتطبب أن مرض ولده لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال فى الحال حزنه . فليس ولده بأعزّ من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار . ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها الى النار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجي . فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع . ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة كمن ينفر عن عسل فيه سم ولو كان فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة . فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلاّ بمثل هذا الايمان . ولما عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون . فلا ترى إلاّ معرضاً عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصراً عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغي أن يدوم الى الموت . وينبغي أن يجد

هذه المرارة فى جميع الذنوب *

وأما القصد الذى ينبعث منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك مافرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت *

ومن أهم مايجب تداركه الحقوق المالية فمن تناول مالا بغصب أوخيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو أكل أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنهم ليستحلهم أو ليؤدى حقوقهم لهم أو لورثتهم وليحاسب نفسه على الحبّات والدوانق قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فان عجز فلا يبقى له طريق إلاّ أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم الثابتة فى ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لايعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار *

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسؤهم أو بعيبهم فى الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله فمن وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات *

ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة *

﴿ أقسام العباد فى دوام التوبة ﴾

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات

(الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو (السابق بالخيرات) المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة (النفس المطمئنة) التي ترجع الى ربها راضية مرضية *

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بان تكون هى (النفس اللوّامة) إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهى أغلب أحوال التائبين لان الشرّ معجون بطينة الآدمى قلما ينفك

عنه . وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذينَ يجتنبونَ كبائِرَ الإِثمِ والفواحشِ إلاّ اللَّمَمَ إنّ ربَّكَ واسعُ المغفرةِ) فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى (والذينَ إذا فعلوا فاحِشَةً أوظَلَمُوا أنفسَهمْ ذَكَرُوا اللهَ فاستغفرُوا لِذُنوبِهِمْ) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وفى الخبر لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفيئة بعد الفيئة أى الحين بعد الحين وفى الخبر (كلُّ بنى آدمَ خطّاؤنَ وخيرُ الخطّائينَ التوّابونَ) فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب وهو يَوَدّ لو كفى شرها فى حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها لكنه يسوّل نفسه ويسوّف توبته يوما بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى (النفس المسوّلة) وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وآخرُونَ اعترفوا بذُنوبِهِمْ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة

ويقع أمره فى المشيئة ان تداركه الله بفضله ألحقه بالسابقين والا فيخشى عليه

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرّارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وانتظاره مع هذه الحالة المغفرة من الله تعالى غرور فان المقصّر عن الطاعة المصرّ على الذنوب الغير السالك سبيل المغفرة المنتظر للغفران يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين كما ان من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب يعدّ عند ذوى البصائر من الحمقى المغرورين . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة . والعجب من عقل هذا المعتوه وتر ويجه حماقته إذ يقول (ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتى ليست تضره) ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار . واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك . وكسلك بترك التجارة ليس يضرك . فاجلس في بيتك . فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب . فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ماهذا الهوس . السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وانما ينال ذلك بالكسب . هكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم المغرور ان رب الآخرة ورب الدنيا واحد . وان سنته لا تبديل لها فيهما

جميعا وانه قد أخبر إذ قال (وَانْ لَيْسَ للاِنسان إلاّ ما سَعَى) فنعوذ بالله من الضلال *

﴿ مايفعله التائب بعد الذنب ﴾

اعلم أن الواجب على التائب ان كان جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق هو أن يبادر الى التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويخفض من كبره فيما بين العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول (رب ظلمت نفسى وعملت سوأ فاغفر لى ذنوبى) وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار المأثورة وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وبالجملة فينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات .

واعلم انه ليس كل استغفار نافعا ففى خبر (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله) وقال بعض السلف . الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة . استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير . وذلك لان

الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما أصَرَّ من استغفرَ ولوْ عادَ فى اليوْم سبعينَ مرَّةً ﴾ ثم ان للتوبة ثمرتين

(أحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له

(والثانية) نيل الدرجات . وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها فانه لا تخلو ذرة من خير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر . فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام فرابعة بقولها استغفارنا يحتاج الي استغفار كثير . لا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر

الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه

﴿ دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار ﴾

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء وكل داء حصل من سبب فدواؤه إبطاله ولا يبطل الشئ إلا بضده ولا سبب للاصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة *

وأما الانواع النافعة فى حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب فهى أربعة أنواع (الاول) أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوّفة للمذنبين والعاصين وكذا ماورد من الاخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين (الثانى) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة ونحوها فانه لم يرد بها القرآن والاخبار ورودَ الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعى التوبة *

(الثالث) أن يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فينبغي أن يخوّف به . وفى خبر ﴿ إنّ العبدَ لَيُحرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصيبُهُ ﴾ وقال

بعض السلف . ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصانا فى المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه . وهو كما قال لان اللعنة هى الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير و يسر له الشرّ فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر و يتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون وبالجملة فالاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا فمن ابتلى بشئ منها كان عقوبة له وان أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته و يوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته (الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة وغير ذلك *

والمدار فى هذا الباب على الفكر النافع وهو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وليعتبر بانه لو مرض فأخبره طبيب نصرانىّ بان شرب الماء البارد يضره و يسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة ومفارقته للدنيا لا بد منها فيقول كيف يليق بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصرانى طبيب يدعى الطب بلا معجزة على طبّه وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا . ومتى استشعر قلبه

ذلك انبعث خوفه واذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر . وتوفيقُ الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدّق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وانما لله الآخرة والاولى *

كتاب الصبر والشكر

﴿ فضيلة الصبر ﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل (وَجعلْنا منهمْ أئمّةً يَهدُونَ بأمرِنا لمّا صَبرُوا) وقال تعالى (وَلَيَجْزِيَنّ الذِينَ صَبرُوا أجرَهُمْ بأحسَنِ ما كانوا يَعملونَ) وقال تعالى (أولئكَ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرّتين بما صَبرُوا) وقال تعالى (إنّما يُوَفّى الصّابرُونَ أجرَهم بِغَيرِ حِسابٍ) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ووعد الصابرين بانه معهم فقال تعالى (إنّ اللهَ مَعَ الصّابرين) وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى (أولئكَ عليهم صلواتٌ من رَبهمْ ورَحمةٌ وأولئكَ همُ المهتدُونَ) ومن الاخبار قوله صلى الله عليه وسلم (الصّبرُ نِصفُ الايمان) وسئل صلى الله عليه وسلم عن

الايمان فقال (الصَّبرُ والسَّماحةُ)

﴿ حقيقة الصبر وأقسامه ﴾

اعلم أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى وباعث الدّين هو ماهدى اليه الانسان من معرفة الله ورسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وهي الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات وباعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضاها . فمن ثبت حتى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة التحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق باتباع الشياطين *

ثم أن باعث الدّين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة أحوال *

(أحدها) أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقرّبون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا *

(الحالة الثانية) أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكّموا أعداء الله فى قلوبهم ﴿ أُولئِكَ الَّذينَ اشتَرُوا الحَياةَ الدُّنيا بِالآخِرَةِ ﴾ فخسرت صفقتهم *

(الحالة الثالثة) أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يُعَدُّ لا من الظافرين وأهل هذه

الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم *

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له ذلك وعطله فهو الناقص حقا *

واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر *

﴿ بيان مظانّ الحاجة الى الصبر ﴾

﴿ وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال ﴾

اعلم أن جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين مايوافق هواه وما لايوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر فى كل واحدٍ منهما . وهو فى جميع الأحوال لايخلوعن هذين النوعين فإذًا لا يستغنى قط عن الصبر *

(النوع الأوّل) مايوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدُّنيا وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الأمور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك فى ملاذها المباحة أخرجه ذلك الى البطر والطغيان ولذلك حذّر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد . فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها وأن يرعى حقوق الله فى ماله

بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهـذا الصبر متصل بالشكر . وانما كان الصبر على السراء أشـد لأنه مقرون بالقدرة والجائع عنـد غيبة الطعام أقدر على الصبر منه اذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء *

(النوع الثانى) مالا يوافق الهوى والطبع وذلك إما أن يرتبط باختيار العبـد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منـه . فهذه ثلاثة أقسام *

(القسم الأوّل) مايرتبط باختياره وهما ضربان *

(الضرب الأوّل) الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها لأن منها ماتنفر عنـه النفس بسبب الكسل كالصلاة أو بسبب البخل كالزكاة أو بسببهما جميعاً كالحج والجهاد وكل ذلك يحتاج الى صبر *

(الضرب الثانى) المعاصى . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الفَحشاءِ وَالمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ فما أحوج العبـد الى الصبر عنها سيما مالا يثقل منها على النفس كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار والقدح فى الموتى . ولمصير ذلك معتاداً فى المحاورات بطل استقباحها من القلوب لعموم الأنس بها وهي من أكبر الموبقات *

(القسم الثانى) مالا يرتبط هجومه باختيار وله اختيار فى دفعه كالوأوذى

بفعل أو قول وجني عليه فى نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال تعالى ﴿ وَاصبِرْ عَلى مايَقولونَ وَاهجُرهُم هَجرًا جَمِيلاً ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَتسمعُنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبلِكُمْ وَمِنَ الَّذينَ أَشرَكوا أذًى كَثيرًا وَإن تَصبِرُوا وَتَتّقوا فإِنَّ ذلكَ مِنْ عَزمِ الأمُورِ ﴾ أى تصبروا على المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره . فقال تعالى ﴿ وَإن عاقَبتُم فَعاقِبُوا بِمثْلِ ماعُوقِبتُم بهِ وَلَئِنْ صَبَرْتم لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿صِلْ مَن قَطَعَكَ . وَأَعطِ مَن حَرَمَكَ . وَاعفُ عمّن ظَلَمَكَ ﴾ *

(القسم الثالث) مالا يدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب مثل موت الأعزّة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفسادالأعضاء وسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر وانما ينال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم لأن هذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضاء بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن أم سليم رحمها الله قالت توفى ابنٌ لى وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فهيأت له افطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبيّ فقلت بحمد الله لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم

الذى يحرك القلب أو الفرار من الصور المشتهاة بالكلية أو تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى يشتهيه كالنكاح فان كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه مايغنى عن المحظورات منه . ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد . فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر *

﴿ بيان فضيلة الشكر ﴾

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه فقال تعالى ﴿فاذكُرُونى أذكُرْكم وَاشكرُوا لى وَلا تَكفُرُونِ ﴾ وقال تعالى ﴿ مايَفعَلُ اللهُ بِعَذَابِكم إنْ شَكَرتم وآمَنتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسَنَجزِى الشَّاكِرِينَ ﴾ وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر فقال سبحانه ﴿وَلَئن شَكَرتم لأزِيدَنَّكُم﴾ومن الأحاديث قوله صلوات الله عليه ﴿ الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمنزِلةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ ﴾ *

﴿ حقيقة الشكر ﴾

اعلم أن الشكر ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبو به . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان *اما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق*وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه* وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته *

﴿ بيان الشكر فى حق الله تعالى ﴾

اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا لمولاه الا اذا استعمل نعمته في محبته أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه وأما اذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر نعمته كما اذا أهملها وعطلها وان كان هـذا دون الاول الا انه كفران للنعمة بالتضييع (وكل ماخلق فى الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادته) *

ثم ان فعـل الشكر وترك الكفر لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ولتميز ذلك مدركان (أحدهما) السمع ومستنده الآيات والأخبار (الثانى) بصـيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار لادراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه إذ ما خلق شـيأ فى العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية . أما الجلية فـكالعلم بان الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الأبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الارض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام . وقـد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى (إنَّا صَبَبْنا المـاء صبًّا ثمَّ شَقَقْنا الأرْضَ شقا فأنبتنا فيها حبًّا وعِنباً) الآية وأما الحكمة فى سائر الكواكب فخفيـة لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذى يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ

﴿ ما يشترك فيه الصبر والشكر ﴾

اعلم انه ما من نعمة من النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تكون بلاء بالاضافة ونعمة كذلك . فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى (ولوْ بَسطَ اللهُ الرّزقَ لعبادِهِ لبغَوْا فى الأرْضِ) وقال تعالى (كلاّ إنّ الإنسانَ ليَطغى أنْ رَآهُ اسْتَغنى) وكذلك الزوجة والولد والقريب وأمثالها فان الله تعالى لم يخلق شيأ إلا وفيه حكمة ونعمة أيضا . فاذًا فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى . فاذًا كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح فاعلم أن الشئ الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها (أحدها) ان كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذ لم تكن أعظم منها في الدنيا (الثانى) انه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه وفى الخبر (أللهُمَّ لا تجعَلْ مُصيبتَنا فى دِيننا) (الثالث) انه ما من عقوبة إلاّ ويتصور أن تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهوّن المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم فلعله لم تؤخر عقوبته

الى الآخرة وعجلت عقوبته فى الدنيا . فلم لا يشكر الله على ذلك

(الرابع) ان هـذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليـه فى أم الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها . فهـذه نعمة (الخامس) ان ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة . وكل بلاء فى الامور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل . فمن عرف هـذا تصور منـه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منـه الشكر على المصيبة . والاخبار الواردة في ثواب الصـبر على المصائب كثيرة ويكفى فى ذلك قوله تعالى (إنما يُوَفَّى الصابرُون أجرَهم بَغير ِحساب) *

ثم مع فضل النعمة فى البلاء كان صلى الله عليه وسـلم يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة وكان يستعيذ من شماتة الأعداء وغيرها . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (سَلُوا اللهَ العافيةَ فما أُعطِيَ أحدٌ أفضلَ منَ العافيـةِ إلاّ اليقين) وأشار باليقين الى عافيـة القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وفى دعائه صـلى الله عليه وسـلم (وعافِيتكَ أحبُّ اليَّ)

فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافيـة فى الدّين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين *

كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم إلا سياط التخويف فلا بد اذا من بيان حقائقهما *

﴿ بيان حقيقة الرجاء ﴾

قد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء اليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لاينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا مازرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوّس ثم أمدّه بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه فى أوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء . وان بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم

انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورًا لا رجاء . وان بثّ البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء . فاذًا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودًا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت . وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم (الأحمقُ من أتبعَ نفسَه هَواها وتمنَّى على الله) وقال تعالى (فخلَفَ من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسَوْف يَلقَوْنَ غَيًّا) وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلفٌ وَرِثوا الكتاب يأخذونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفرُ لنا) وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال (ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبدًا وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئن رُدِدْتُ الى رَبّى لأجدَنَّ خيرًا منها مُنقلَبا) فاذا العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط

منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيلِ اللهِ أولئكَ يَرْجُونَ رحمَةَ اللهِ ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمةالله وقال تعالى ﴿ إنّ الذين يتلونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً يرجونَ تجارةً لن تبورَ ﴾ فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة . وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة . وانتظار زرع الجنة ببذر النار . وطلب دار المطيعين بالمعاصي . وانتظار الجزاء بغير عمل . والتمنى على الله عزّ وجلّ مع الافراط *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لاتجرى على اليبس

فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الأحوال لابدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لايظهر ذلك فى حق الله تعالى فان كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى *

﴿ بيان حقيقة الخوف ﴾

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال . والعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف . فالخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوّة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ أنا أخوَفُكُم لِلّهِ ﴾ وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنّما يَخشي اللهَ مِن عِبادِهِ العُلماءُ ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات أما فى البدن فبالنحول والبكاء وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف أن فيه سماً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل فى القلب الذبول والخشوع والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ولا يكون له شغل إلاّ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات . وما ورد فى فضيلة

الخوف خارج عن الحصر . وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى ﴿ وَهدًى وَرَحمةً لِلّذِينَ هُم لِرَبّهِم يَرهبُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عنهُ ذلكَ لَمَن خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وكل مادلّ على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم *

﴿ الدواء الذى يستجلب به الخوف ﴾

اعلم أن من قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأوّلين والآخرين وكان أشد الناس خوفا حتى روى أنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ﴿ مايُدرِيك أنّهُ كذلكَ واللهِ إنّى رسُولُ اللهِ وما أدرِى مايَصنَعُ بى إنّ اللهَ خَلَقَ الجنّةَ وخلقَ لها أهلاً لا يُزادُ فيهِم ولا يُنقَص مِنهُم ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة هنيأ لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكى أحداً بعد عثمان وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيأ لك هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله

فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ وما يُدرِيكِ لعلَّهُ كانَ يتكلّم بما لا ينفعهُ ويمنعُ مالا يَضرُّهُ ﴾ وفى حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَن هذهِ المُتأَلِّيَةُ على اللهِ تعالى وما يُدرِيكِ لَعلَّ فلانا كانَ يَتكلّمُ بما لا يَعنيهِ ويبخَلُ بما لا يُغنيهِ ﴾ وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ شَيّبَتنى هُودٌ وأخواتُها سورةُ الواقِعة وإذا الشّمسُ كُوِّرَتْ وعمَّ يَتَساءلونَ ﴾ فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ﴿ ألا بُعداً لِعادٍ قومِ هُود ، ألا بُعداً لِثمودَ ، ألا بُعدًا لمَدْينَ كما بَعِدَت ثمودُ ﴾ مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ماأشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها . وفى سورة الواقعة ﴿ لَيسَ لوَقعتِها كاذبةٌ خافِضةٌ رافِعةٌ ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة أما خافضة قوماً كانوا مرفوعين فى الدنيا وأما رافعة قوماً كانوا مخفوضين فى الدنيا وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى ﴿ وَإذا الجَحيمُ سُعِّرَت وَإذا الجَنّةُ أُزلِفَت علمَت نَفسٌ ماأَحضَرَت ﴾ وفى عم يتساءلون ﴿ يومَ يَنظُرُ المَرءُ ماقَدَّمت يَداهُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ لا يَتكلّمُونَ إلاّ مَن أذِنَ لهُ الرّحمنُ وقالَ صَواباً ﴾ ❊

والقرآن من أوّله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلاّ قوله تعالى ﴿ وَإنّى لغفّارٌ لمَنْ تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً ثمَّ اهتَدَى ﴾ لكانَ كافياً إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه

قوله تعالى ﴿ فأمّا مَنْ تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً فعسى أن يكونَ مِنَ المُفلِحينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لِيَسألَ الصَّادقينَ عن صِدقِهِم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرُغُ لكم أيُّها الثّقلانِ ﴾ وقوله تعالي ﴿ أفأمنوا مكرَ اللهِ ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلكَ أخذُ ربّكَ إذا أخذَ القُرى وهيَ ظالمَةٌ إنّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ ﴾ وقوله ﴿ فمن يَعمَل مِثقالَ ذرَّةٍ خيراً يرَهُ ﴾ الآيتين . وكذلك قوله تعالى ﴿ والعصرِ إنّ الإِنسانَ لفي خُسْرٍ ﴾ الي آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون وخوف الكاملين لايصدر إلاّ عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته . فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن . وكيف يؤمن تغيّر الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلبا من القِدْرِ في غليانها وقد قال معاذ بن جبل رضى الله عنه أن المؤمن لايسكن روعه حتي يترك جسر جهنم وراءه وروى عن مخاوف الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بعدهم مالايحصى ونحن أجدر بالخوف منهم ولكن صدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحرّكنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا ومن العجائب إنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا ونجتهد فى طلب أرزاقنا ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى اليه رجاؤنا جلّ جلاله يقول :

﴿ وَأن لَيسَ للإِنسانِ إلاّ ما سَعَى . ولا يَغُرَّنكم باللهِ الغَرُورُ . يا أَيُّها الإِنسانُ ماغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هـذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله *

كتاب الفقر والزهد

﴿ فضيلة الفقر والفقراء الراضين الصادقين ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ الفَقيرَ المُتعفِّفَ أباالعيالِ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدخلُ فُقَراءُ امَّتي الجنّةَ قبلَ أغنيائِها بخمسمائةِ عامٍ ﴾ وعنه صلوات الله عليـه ﴿ مَن أصبحَ مِنكم مُعافًى فى جِسمهِ آمِناً في سِربهِ عنـدَهُ قوتُ يومهِ فـكأنَّما حيزَتْ لهُ الدُّنيا بِحـذَافيرِها ﴾ ولما طلبت سادات العرب وأغنياؤهم من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه فقراء الصحابة ترفعا عن مجالستهم اذا جلسوا اليـه نزل قوله تعالى ﴿ وَاصبِرْ نَفسَكَ معَ الّذينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعَشيّ يُريدُونَ وجهَهُ ولا تَعدُ عَيناكَ عَنهُم ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ ولا تُطِع مَن أغفَلْنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا ﴾ يعنى الأغنياء . واسـتأذن ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ عبَسَ وتَولّى أن جاءَهُ الأعمَى . وما يُدريكَ لَعلَّهُ يزّكّى أو يذّكّرُ فتنفعَهُ الذّكرَى ﴾ يعنى ابن

أم مكتوم ﴿ أَمَّا مَنِ استَغنى فأنتَ لهُ تَصدَّى ﴾ يعنى هذا الشريف وقال يحيى بن معاذ حبك للفقراء من أخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وعن علىّ رضى الله عنه مرفوعا (أحبُّ العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الرّاضى عن الله تعالى) *

﴿ آداب الفقير فى فقره ﴾

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها (فأما أدب باطنه) فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لايكون كارها فعل الله تعالى من حيث أنه فعله وان كان كارها للفقر (وأما أدب ظاهره) فان يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ففى الحديث : أن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال : وقال تعالى ﴿ يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أغنِياءَ مِنَ التَّعفُّفِ ﴾ وأما فى أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغنىّ لأجل غناه قال علىّ كرَّم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنىّ للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسنُ منه تيهُ الفقير على الغنيّ ثقة بالله عزّ وجلَّ فهذه رتبة . وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . وينبغى أن لايسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً فى العطاء وأما أدبه فى أفعاله فأن لايفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهرغنى *

﴿ آداب الفقير فى قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى . وغرضه فى الأخـذ (أما نفس المال) فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه *

(وأما غرض المعطى) فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية . أو الثواب وهو الصدقة والزكاة.أو الذكر والرّياءوالسمعة *

(أما الأوّل وهو الهدية) فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولكن ينبغى أن لا يكون فيها منـة فان كان فيها منـة فالأولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض

(الثانى) أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صـفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليـه فهو محل شبهة . وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنـه فان كان مقارفا لمعصية فى السر لو علمها المعطى لنفر طبعه ولما تقرّب الى الله بالتصدق عليـه . فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فان أخذه حرام محض لاشبهة فيه (الثالث) أن يكون غرضه السمعة والرّياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد *

(وأما غرضه فى الأخذ) فينبغى أن ينظر أهو محتاج اليـه فيما لا بدّ له منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليـه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالأفضل له الأخذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ

أتاهُ شيءٌ مِنْ هـذا المَالِ مِن غَيْرِ مَسألةٍ ولا اسْتشْرافٍ فإِنَّما هُوَ رِزْقٌ ساقَهُ اللهُ إِليَهِ فلا يَرُدَّهُ ﴾ . فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخـذه وامساكه وان كان متكفلا بحقوق الفقراء فليأخـذ مازاد على حاجته فانه غير زائد على حاجة الفقراء وليبادر به الى الصرف اليهم . وبالجملة فالزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى ﴿ إِنّا جَعَلنا ماعَلى الأرضِ زِينةً لها لِنَبلُوَهُمْ أيُّهم أحْسنُ عَملاً ﴾

﴿ تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر اليه ﴾

إعلم انه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سألَ عنْ غنيٍّ فإنَّما يَستكثِرُ منْ جمْرِ جهنمَ ومنْ سألَ ولهُ ما يُغْنيهِ جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتَقعْقعُ وليسَ عليهِ لحمٌ ﴾ وفى لفظ آخر ﴿ كانتْ مَسألتُهُ خدُوشاً وكدُوحاً فى وَجهِهِ ﴾ وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال الم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى ابل الصدقة وضربه بالدرة

وقال لا تعد . ولولا ان سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته . وانما استجاز ذلك رضى الله عنه لكونه لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من أعطاه شيأ فانما أعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تميز ذلك ورده الى أصحابه اذ لايعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالاً لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح نعم يباح السؤال بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فالضرورة كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه . وهو مباح مادام السائل عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلبُ العلم أوقاته . وأما المستغنى فهو الذى يطلب الشئ شيأ وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا . وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء وكمن له جبة لاقميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد وكمن يسأل الكراء لفرس . ولاينبغى أن يأخذ مايعلم أن باعثه الحياء فانه حرام محض . وما يشك فيه فليستفت قلبه فيه . وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى مالا يريبه . وادراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته . فان . قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ أطيَبَ ما أكل الرَّجلُ منْ كَسبِهِ ﴾ وقد ورد فى وعيد من يسأل وهو غنى قوله صلى الله

عليه وسلم ﴿ مَنْ سألَ عنْ ظَهْرِ غِنًى فإنما يسألُ جمْرًا فليَستقلَّ منهُ أو أو ليستَكثِرَ ﴾ وقد ورد فى حد الغنى المحرم للسؤال آثار مختلفة متنوعة يمكن تنزيلها على اختلاف أحوال المحتاجين اذ الحاجة لا تقبل الضبط . فأمرها منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه و بين الله تعالى فيستفتى فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة نسأله تعالى حسن التوفيق بلطفه *

﴿ فضيلة الزهد وحقيقته ﴾

قال تعالى ﴿ ولا تمُدَّنَّ عينَيْكَ إلى ما متَّعنَا به أزواجاً مِنهُمْ زَهرَةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفتنَهُمْ فيهِ ورزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقَى ﴾ وقال تعالى (منْ كان يريدُ حرْثَ الآخرَةِ نَزِدْ لَهُ فى حرْثِهِ ومن كانَ يريدُ حرثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ منها ومالهُ فى الآخرَةِ مِنْ نصيبٍ ﴾ وفى حديث عمر رضى الله عنه انه لما نزل قوله تعالى ﴿ والذينَ يَكنزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفقونَها فى سبيلِ اللهِ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تبًّا لِلدُّنيا تبًّا للدِّينارِ والدِّرهَمِ ﴾ فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شئ ندخر فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيتَّخِذَ أحدُكُم لِساناً ذاكِرًا وقلباً شاكِرًا وزَوجةً صالِحةً تُعينهُ على أمرِ آخرَتِهِ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ السَّخىُّ قريبٌ مِنَ اللهِ قريبٌ مِنَ الناسِ قريبٌ مِنَ الجنَّةِ والبخلُ بعيدٌ مِنَ اللهِ بعيدٌ مِنَ الناسِ قريبٌ مِنَ النارِ ﴾ والبخل ثمرة الرغبة فى الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إزهَدْ فى الدُّنيا يُحبَّكَ اللهُ وازْهَدْ فيما فى أيدِى الناسِ يُحبَّكَ الناسُ ﴾

ثم ان أصناف ما فيه الزهد تكاد تخرج عن الحصر وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلناسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنينَ والقَناطيرِ المُقنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخيلِ المُسوَّمَةِ والأنعامِ والحَرْثِ ذلكَ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا ﴾ ثم ردّه فى آية أخرى الى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعلَمُوا أنما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزينَةٌ وَتَفاخُرٌ بينَكُمْ وتَكاثُرٌ فى الأموالِ والأولادِ ﴾ ثم رده فى موضع آخر الى اثنين فقال تعالى ﴿ إنّما الحياةُ الدُّنيا لعِبٌ ولَهْوٌ ﴾ ثم رد الكل الى واحد في موضع آخر فقال ﴿ وَنَهى النَّفسَ عَنِ الهَوَى فإنَّ الجنّةَ هىَ المأْوَى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا فينبغى أن يكون الزهد فيه *

والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها الى ماهو خير منها علما بأن المتروك حقير بالاضافة الى المأخوذ *

واعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد بل لا بد من الزهد فى حظوظ النفس وينبغي أن يعول الزاهد فى باطنه على ثلاث علامات *

(الاولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى ﴿ لِكيلاَ تأْسَوْا على ما فاتكُمْ ولاَ تفرَحُوا بما آتاكُمْ ﴾ * (الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه (الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة *

كتاب النية والاخلاص والصدق

﴿ فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى ﴿ ولا تَطرُدِ الّذينَ يَدعُون ربَّهم بِالغَداةِ والعَشِيّ يريدُون وجهَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنْ يُرِيدَا إصلاحاً يُوَفّقِ اللهُ بينهُما ﴾ والمراد بتلك الارادة هى النية وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما الأعمالُ بالنيّات ولكلّ امرِئ ما نوَى فمنْ كانتْ هِجرَتهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فَهجرَتُهُ إلى اللهِ ورسُولِهِ ومنْ كانَت هِجرتُه إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها فَهِجرَتُهُ إلى ما هاجَرَ اليهِ ﴾ وفى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال ﴿ إنّ بالمَدينةِ أقواماً ما قَطَعنا وادِياً ولاَ وَطِئنا مَوْطِئاً يَغيظُ الكفّارَ ولا أنْفقنا نَفَقةً ولا أصابَتْنا مَخمَصةٌ إلاّ شَرِكونا فى ذلك وهُمْ بالمَدينةِ ﴾ قالوا وكيف ذلك يارسُولَ اللهِ ولَيسُوا معَنا قال ﴿ حَبَسهُمُ العُذرُ ﴾ فشركوا بحسن النية وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على مامات عليه ﴾ وفى حديث أبى هريرة ﴿ منْ تزَوّجَ امرأةً على صَداقٍ وهُو لا ينوِى أداءَهُ فهُو زَانٍ ومَن ادّانَ دَيناً وهُو لاَ يَنوِى قضاءَهُ فهُو سارِقٌ ﴾ *

﴿ تفضيل الاعمال المتعلقة بالنية ﴾

اعلم ان الاعمال تنقسم الى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات (فأما المعاصى) فلا تتغير عن موضعها بالنية أعنى ان المعصية لا تنقلب طاعة بالنية

كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره أو يبنى مدرسة أو مسجدا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل ياأبا محمد هل تعرف شيأ أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل وقد قال تعالى ﴿ فاسألوا أهلَ الذّكر إن كنتم لاتَعلَمُونَ ﴾ *

نعم للنية دخل فى المعاصى وهو أنه إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها *

(القسم الثانى الطاعات) وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله لاغير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة حسنة ثم تضاعف كل حسنة بعشر أمثالها كما ورد ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل

أعمال المتقين (أوّلها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله *

(ثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى صلاة *

(ثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات

(رابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد (خامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به (سادسها) أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لايخلو عمن يسىء فى صلاته أو يتعاطى مالايحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يَعْلَم منه فتتضاعف خيراته (سابعها) أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة . والمسجدُ معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله *

(ثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله مايقتضى هتك الحرمة ـ فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات اذ مامن طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له ـ فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات *

(القسم الثالث المباحات) وما من شئ من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلا فانه بقصد التلذذ والتنعم مباح . وأما اذا نوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترويح جيرانه ليستريحوا بروائحه . ودفع الرائحة الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى

ايذاء مخالطيه . وزيادةَ فطنته وذكائه ليسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التى لا يعجز عنها من غلب طلب الخير على قلبه مما ينال بها معالي الدرجات . وأما من قصد بالتطيب اظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق ليذكر بذلك أو ليتودد الى قلوب النساء الأجنبيات أو لغير ذلك فهذا يجعل الطيب معصية ويكون فى القيامة أنتن من الجيفة والمباحات كثيرة لا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه . ولهذا قال بعض السلف (إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شئ نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى للخلاء) وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب الى الله تعالى لأن كل ماهو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدّين . فمن قصد من الأكل التقوّى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده كان مطيعا بأكله ونكاحه وبالجملة فاياك ثم إياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فان الله مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد وقد قال الحسن أن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى و بينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبى فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك *

﴿ فضيلة الاخلاص وحقيقته ﴾

قال الله تعالى ﴿ وما أُمِرُوا إلاّ لِيعبُدُوا اللهَ مُخلِصينَ لهُ الدّينَ ﴾ وقال ﴿ ألاَ لهُ الدّينُ الخالِصُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إلاّ الّذينَ تابوا وَأصلَحُوا واعتَصَمُوا باللهِ وأخلَصُوا دينَهُم للهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ فمنْ كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبّهِ فَلْيعمَلْ عملاً صالِحاً ولا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبّهِ أحَدًا ﴾ وعن علىّ كرم الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول . فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل ﴿ أخْلِصِ العَمَلَ يَجْزِكَ مِنهُ القَليلُ ﴾ وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيآته *

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصاً . والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلاّ أن الشرك درجات وقدجرى العرف على تخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب فاذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الاخلاص ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدوّ له أو يصلى بالليل لغرض دنيوى أو يتعلم العلم أو يخدم العلماء والصوفية لذلك أو يعود مريضاً ليعاد اذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف

اليه خطرة من هـذه الخطرات حتى صار العـمل أخف عليه بسبب هـذه الأمور فقد خرج عمله عن حدّ الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك * وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قلّ أم كثر اذا تطرّق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه فان الخالص من العمل هو الذى لاباعث عليه إلاّ طلب القرب من الله تعالى وهـذا لايتصور إلاّ من محب لله لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ولذا كان علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لايرى وجه الآفة فيها فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لايشعر *

﴿ فضيلة الصدق ودرجاته ﴾

قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ماعاهَدُوا اللهَ عليهِ ﴾ وقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم ﴿ إنّ الصّدْقَ يَهدى إلى البِرّ والبِرّ يَهدى إلى الجَنّةِ وَإنّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حتّى يُكتبَ عِندَ اللهِ صِدّيقاً وإنّ الكذبَ يهدى إلى الفُجُورِ والفُجُورَ يهدى الى النّارِ وإنّ الرَّجـلَ لَيَـكذِبَ حتّى يُكتَبَ عندَ اللهِ كذّاباً ﴾ *

والصدق درجات (الأولى صدق اللسان) وحق على كل عبـد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وكمال صـدق القول الاحتراز عن

المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب الا أن ذلك مما تمسّ اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار . فمن اضطر الى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ماوجد اليه سبيلا . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورّى بغيره . وذلك كى لاينتهى الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيس بكَذّابٍ من أصلَح بين اثْنَينِ فقال خيرًا أو أنمى خيرًا ﴾ ورخص فى النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع . من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النيةفلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير (فمهما صح قصده وصدقت نيّته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقاً كيفما كان لفظه) ثم التعريض فيه أولى وطريقه ماحكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله

صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار . وهذا الذى ذكرناه من الاحتراز عن صريح اللفظ وعن المعاريض الا عند الضرورة هو الكمال الأوّل فى صدق القول . وهناك كمال ثانٍ وهو أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله ﴿ وجَّهتُ وجهِى للّذى فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ ﴾ فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب . وكقوله ﴿ إيَّاكَ نَعبُدُ ﴾ وكقوله أنا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا . ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه أو عبد الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله . (وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له) كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تَعِسَ عبدُ الدّينارِ تعِسَ عبدُ الدّرْهمِ وعبدُ الخَميصَةِ ﴾ سمى كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وانما العبد الحق لله عزّ وجلّ من أعتق من غير الله تعالى واشتغل بالله وبمحبته وتقيد ظاهره وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلاّ الله تعالى *

(الدرجة الثانية) الصدق فى النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلاّ الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية *

(الثالثة) صدق العزم وهو الجزم فيه بقوة والصادق فيه هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوةً تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردّد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات كمن يقول ان

رزقنى الله مالا تصدّقت بشطره وان أعطانى الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى *

(الرابعة) فى الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عليهِ ﴾ فقد روى عن أنس ان عمّه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال الى أين فقال واهاً لريح الجنة أنى أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته ما عرفت أخى الا بثيابه فنزلت هذه الآية ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عليهِ ﴾ *

وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ ومِنهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لئِنْ آتانا مِنْ فَضلِهِ لَنَصَّدَّقَنّ ولَنَكونَنَّ مِنَ الصّالحينَ فلمّا آتاهُمْ مِنْ فَضلِهِ بَخِلوا بِه وتَوَلّوْا وهُمْ مُعْرِضونَ فأعْقَبَهُمْ نِفاقاً فى قُلوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَونَهُ بما أخلَفوا

اللهَ ما وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكْذِبُونَ ﴾ فجعل العزمَ عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا *

(الخامسة) الصدق فى الاعمال وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لايتصف هو به فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لا يرائى غيره ولكنه فى الباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال فى عمله غير صادق فيه فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره *

اذا السرّ والاعلان فى المؤمن استوى فقد عزّ فى الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلانُ سرًّا فما له على سعيه فضل سوي الكدّ والعنا

ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الامور دون بعض فان كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا *

كتاب المحاسبة والمراقبة

﴿ بيان لزوم المحاسبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ ونَضَعُ المَوازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيأً وإن كانَ مِثقالَ حَبّةٍ منْ خَرْدَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسِبينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَوُضِعَ الكتابُ فترَى المُجرِمينَ مُشفقينَ ممَّا فيهِ ويقولونَ ياوَيْلَتَنا مالِ هذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرَةً ولا كبيرَةً إلاّ أحصاها ووَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يَظلِمُ رَبُّكَ أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ يَومَ يَبعثُهُمُ اللهُ جميعاً فيُنَبِّئُهُم

بما عمِلوا أحصاهُ اللهُ ونَسُوهُ واللهُ على كلّ شيء شهيدٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يَصدُرُ النّاسُ أشتاتاً ليُرَوْا أعمالَهُمْ فمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يرَهُ ومَنْ يعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ شرًّا يرَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ ثمّ تُوَفّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظلَمُون ﴾ وقال تعالى ﴿ يومَ تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلتْ من خيرٍ مُحضَراً وما عمِلتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينَها وبينَهُ أمَدًا بعيدًا ويُحَذِّرُكُم اللهُ نفسَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلَمُوا أنّ اللهَ يعلَمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه ﴾ *

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد . وانهم سيناقشون فى الحساب . و يطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات . فتحققوا انهم لا ينجيهم من هـذه الاخطار الا لزوم المحاسبة . وصدق المراقبة . ومطالبة النفس فى الانفـاس والحركات . ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه . وحضر عنـد السؤال جوابه . وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته. وطالت فى عرصات القيامة وقفاته . وقادته الى الخزى والمقت سيئاته . فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها . وخطراتها وخطواتها . فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل *

﴿ بيان مشارطة النفس ﴾

اذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع الياس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنسأ في أجلى وأنعم علىّ به . ولو توفانى لكنت أتمنّى أن يرجعنى الى الدنيا يوماً واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لاقيمة لها فلاتميلى الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لايطاق . وقد قال بعضهم هب ان المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين . أشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يومَ يَجمعُكمْ ليومِ الجمعِ ذلكَ يومُ التّغابُن ﴾ فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها *

(أما العين) فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم أو الى عورة مسلم أو النظر الى مسلم بعين الاحتقار ثم اذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة *

وهكذا ينبغي أن يفصل الامر عليها فى عضو عضو لاسيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة . وجناينه عظيمة بالغيبة . والكذب . والنميمة . وتزكية النفس . ومذمة الخلق والاطعمة والطعن . والدعاء على الاعداء . والمماراة فى الكلام . وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر . والتذكير . وتكرار العلم . والتعليم . وارشاد عباد الله الى طريق الله . واصلاح ذات البين . وسائر خيراته (واما البطن) فيكلفه ترك الشره . وتقليل الاكل من الحلال . واجتناب الشبهات . ويمنعه من الشهوات وهكذا يشرط عليها فى جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول . ولا تخفى معاصى الاعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تكرر عليه فى اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وكذا فيمن يشتغل بشئ من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس وقلما يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جديدة يحتاج الى أن يقتضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذَكِّرْ فإنّ الذّكرَى تَنفَعُ المُؤمِنينَ ﴾ *

﴿ فضيلة المراقبة ﴾

روى ان جبريل عليه السلام سأل النبى صلوات الله عليه عن الاحسان

فقال ﴿ أنْ تَعبُدَاللهَ كأنّكَ تراهُ فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنهُ يراكَ ﴾ وقد قال تعالى (أفَمَنْ هوَ قائمٌ على كلّ نفسٍ بما كَسَبتْ) وقال تعالى (ألم يَعلَمْ بأنّ اللهَ يرَى) وقال تعالى (إنّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً) وقال تعالى (والّذينَ هُمْ لِأَماناتِهمْ وعَهْدِهمْ راعُونَ . والذين هُمْ بِشَهاداتِهمْ قائمُون) وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللهُ عنهُمْ وَرَضُوا عنهُ ذلكَ لَمَنْ خَشِيَ رَبّهُ) فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وقال رجل للجنيد بم استعين على غضّ البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك أسبق من نظرك الى المنظور اليه *

﴿ حقيقة المراقبة ﴾

المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ اليه ويُعنَى بها حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب أمّا الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب وملاحظته اياه وأما المعرفة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وان سرّ القلب فى حقه مكشوف كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف ثم للمراقب في أعماله نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظران همه وحركته أهى لله خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى أمضاه وان كان لغير الله استحيى من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وانها عدوة نفسها وأما

النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل فذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى اتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه *

وهذا ملازم له فى جميع أحواله . لانه لا يخلو اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح . فمراقبته فى الطاعات بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات . وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير . وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لاينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالي عليه . أما فعل يلزمه مباشرته . أومحظور يلزمه تركه . أو ندب حث عليه ليسارع به الي مغفرة الله تعالي ويسابق به عباد الله . أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نفسَهُ) ومن كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الاعمال ليشتغل بها . فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون . والارباح تنال بمزايا الفضائل *

﴿ بيان محاسبة النفس بعد العمل ﴾

قال تعالى ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اتّقوا اللهَ وَلْتنْظُرْ نَفسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وهذه اشارة الى المحاسبة على مامضى من الأعمال . وقال تعالى ﴿ وَتوبوا الى

اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعلّكم تُفلِحُونَ ﴾ والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقال تعالى (إنَّ الَّذينَ اتقوْا إذا مَسَّهُمْ طائف مِنَ الشَّيطانِ تَذَكَّرُوا فإِذَاهُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم ﴿إنّى لأستغفرُ اللهَ تعالى وَأتوبُ إليهِ فى اليَوْمِ مائةَ مَرَّةٍ ﴾ وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و زنوها قبل أن توزنوا . وقال مالك بن دينار رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً : اذا علمت هذا فينبغي أن يكون للمرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا . وكيف لايحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد . ماهذه المساهلة الا عن الغفلة وقلة التوفيق ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبيّن له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء . وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل . وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفى منها

مايتدارك به مافرط كما يصنع التاجر بشريكه . وليتكفل بنفسه من الحساب ما يتولاه غيره فى صعيد القيامة ٭

﴿ توبيخ النفس ومعاتبتها ﴾

اعلم أن أعدى عدوّك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير وأمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة رجوت أن تصير النفسَ المطمئنة المدعوة الى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلنّ ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها قال تعالى ﴿ وذَكِّرْ فإنّ الذّكْرَى تَنفعُ المؤْمنينَ ﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا . أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك تشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم . أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت أما تتدبرين قوله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنّاسِ حِسابُهمْ وَهمْ فى غَفلَةٍ مُعرِضُونَ ما يأتِيهم مِنْ ذِكرٍ مِنْ رَبّهِم محدَثٍ إلاّ استَمعُوهُ وهمْ يَلعبُونَ لاهِيَةً قُلوبُهمْ) ويحك يانفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك فما أعظم كفرك . وان كان مع

علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك *

ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات جرّبى نفسك ان ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتيسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فاذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضى إلا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أنّ سنة الله لاتبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلاّ ماسعى . يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولَبِدٍ وحطَب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين أن العبد ينجو بغير سعى هيهات كما لايندفع برد الشتاء إلاّ بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى فى أن عرّفك طريق التحصن ويسّر لك أسبابه لافى أن يدفع عنك العذاب

دون حصنه انظري يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملي بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود واعلمى أنه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظى يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار فهذه طريق القوم فى معاتبة نفوسهم ومقصودهم منها التنبيه والاسترعاء ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله عنه راضيا *

كتاب التفكر

﴿ فضيلة التفكر ﴾

اعلم انه قد أمر الله تعالي بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالي (الَّذينَ يَذْكُرُون اللهَ قِياماً وقعُودًا وعلى جنوبِهم ويتفكَّرُونَ فى خَلقِ السّموات والارض رَبَّنا ما خَلقْتَ هذَا باطِلاً) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوماً تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم (تَفَكَّرُوا فى خَلقِ اللهِ ولاتَتَفَكَّرُوا فى اللهِ) وروى فى السنة (تفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ منْ عبادَةِ سنَةٍ) وقال حاتم (من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف)

وقال الشافعى رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . ثم أن ثمرة الفكر هى العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة واذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها لأنه الذى ينقل من المكاره الي المحابّ ويهدى الى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد *

﴿ بيان مجارى الفكر ﴾

اعلم أن أنواع مجارى الفكر أربعة : الطاعات . والمعاصى . والصفات المهلكات . والصفات المنجيات *

(فأما المعاصى) فينبغى أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة ثم بدنه هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها . أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم . أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها فينظر فى اللسان ويقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لايعنى الى غير ذلك من المكاره فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها فيحترز منها ويتفكر فى سمعه أنه يصغى به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو وأنه ينبغى أن يحترز عنه ويتفكر فى بطنه أنه انما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب اما بكثرة الأكل من الحلال وذلك مكروه عند الله واما بأكل

الحرام والشبهة فيتفكر فى الاحتراز عن مداخله ويتفكر فى طريق الحلال وموارده ويقرر على نفسه ان العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو أساس العبادات كلها فهكذا يتفكر فى أعضائه حتى يحفظها *

(وأما الطاعات) فينظر أوّلاً فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير . أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل *

ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول أن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه فلم لا أفعله وكذلك يقول فى سمعه انى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم فمالى أعطله وقد أنعم الله علىّ به وأودعنيه لأشكره فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول انى قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر فى ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقنى الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار أحوج منى الى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن

دوابه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه فى البدار الى تلك الطاعات ويتفكر فى اخلاص النية فيها وقس على هذا سائر الطاعات *

(وأما الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيعرفها مما تقدم وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات ويتفكر فى طريق العلاج لها مما سلف ذكره *

(وأما المنجيات) فهى التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد فى الدنيا والاخلاص والصدق فى الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له مما تقدم ذكره فيتفكر كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شئ منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلاّ علوم وأن العلوم لا يثمرها إلاّ أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أوّلا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى احسان الله اليه وأياديه عليه وفى إرساله جميل ستره عليه واذا أراد حال

المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه واذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر فى الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال القبر وحيّاته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم فى المناقشة فى الحساب والمضايقة فى النقير والقطمير ثم ليحضر فى قلبه صورة جهنم وأهوالها وسلاسلها واغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وانهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلودا غيرها وأنهم اذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرّا الى جميع ما ورد فى القرآن من شرحها واذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة *

وأما ذكر مجامع تلك الأحوال فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فان القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين فيه مايورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغى أن يقرأه العبد ويردّد الآية التى هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسراراً لاتنحصر ولا يوقف عليها إلاّ بدقيق الفكر

عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة *

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره *

﴿ بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى ﴾

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن فلنذكر من الموجودات ما يدرك بحس البصر فانه الأقرب الى الافهام وذلك من الآيات التى حث على التفكر فيها القرآن الكريم *

﴿ آية الانسان ﴾

من آياته تعالى الانسان المخلوق من النطفة . وأقرب شئ اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال ﴿ وفى أنفُسِكُمْ أفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال ﴿ قُتِلَ الإِنسانُ ما أكفَرَهُ مِنْ أىّ شىءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثمَّ أماتَهُ فأقبَرَهُ ثمَّ إذا شاء أنشرَهُ ﴾

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ الآية . فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه فانظر الآن الى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب . وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذّاه حتى نما وكبر وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم . ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم

والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص . وفى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات مالو ذهبنا الى وصفها لانقضى فيها الاعمار فانظر الآن الى العظام وهى أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير . وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت . وعريض ودقيق . ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه مفتقراً للتردد فى حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة . وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرف العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه . وفى الآخر حُفَراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار الانسان ان أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذّر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها فألّف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها مايخص القحف واللّحيَ الأعلى واللحى الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادّة تصلح للقطع وهى الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام

الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين وتعداد ذلك يطول فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة والقصد أن ينظر فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وخالف بين أشكالها وخصّصها بعددها المخصوص لأنّه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصانا يحتاج الى جبره ثم أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها أعجب من هذا كله وشرحه يطول وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع مافى الأرض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أأنتم أشدُّ خَلقاً أمِ السَّماءُ بَناها رَفعَ سَمكَها فَسَوّاها وَأغطَشَ لَيلَها وَأخرَجَ ضُحاهَا ﴾ فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك . بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالي ذلك لعجزوا عنه . فالعجب منك لو نظرت الي صورة تأنق النقاش في تصويرها لكثر تعجبك منه وأنت ترى النطفة القذرة

كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسَّنَ أشكال أعضائها وزيَّن ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطنَ حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها . ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مُرًّا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها . وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة فى حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشمّ ليستدلّ باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته . وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب وزيّن الفم بالأسنان ولتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسنَ لونها وشكلها

لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والمثانة لقبول الماء حتى تخرجه فى طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد فى ايصال الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد الى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة فى جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع. وبهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لاتتقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاتتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلاّ بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من

النطفة وهي فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبيّ لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كانه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدى ثم لما كان بدنه سخيفاً لايحتمل الاغذيةالكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً . وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ماينطبق عليهما فمُ الصبيّ ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقاً جدًا حتى لايخرج اللبن منه إلاّ بعد المص تدريجاً فان الطفل لايطيق منه إلاّ القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه فى الحولين لايتغذى إلاّ باللبن فيستغنى عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأنبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلولم يسلط الله الرّحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً . ثم شابا . ثم كهلا . ثم شيخاً اما كفورًا أو شكورًا مطيعاً أو

عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من من الدَّهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرًا . إنا هديناه السبيل إمّا شاكرًا وإمّا كفورًا ﴾ فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الرَّبانيّة والعجب كلّ العجب ممن يرى خطاحسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همته الى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطّهُ وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته . ثم ينظر الى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهدٍ على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لاتعرف من نفسك إلاّ أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم تشاركك في معرفة ذلك وانما خاصية الانسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر فى زمرة النبيين والصدّيقين مقرّبا من حضرة ربّ العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لاقدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً . واذا

عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرّك ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السموات *

﴿ آية الأرض ﴾

من آياته تعالى أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها وجعلها قارة لاتتحرّك وأرسى فيها الجبال وتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ أ جميع جوانبها وقد أكثر تعالى فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ الأحياء وبطنها مرقد الاموات قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾ فانظر الى الارض وهى ميتة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الانهار بجرى على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافيا زلالا وجعل به كل شئ حىّ فأخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والروائح يَفْضُلُ بعضها على بعض فى الأُكُل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت أن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى أرض

البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوّى وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يفرح وهذا ينوّم فلم تنبت من الارض ورقة ولا تبنة إلاّ وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام في وصف ذلك فيكفيك من كل نبذةٌ يسيرة تدل على طريق الفكر فهذه عجائب النبات *

﴿ آية أصناف الحيوانات ﴾

اعلم أن من آياته تعالى أصناف الحيوانات وانقسامها الى ما يطير والى مايمشى وانقسام مايمشى الى ما يمشى على رجلين وعلى أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الاهلية ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي

جمعها غذائها وفى ألفها لزوجها وفي إدخارها لنفسها وفى حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها الى حاجاتها لم نقدر على ذلك . وكل يشهد بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هـذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات *

وهذا الباب أيضا لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة . نعم اذا رأى حيوانا ولو دودا ـ تجدد تعجبه . وقال : سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه واكنانا لهم فى ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب و بعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان مَنْ الأمور مكشوفة فى علمه من غـير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أومشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى

على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

﴿ آية البحار ﴾

من آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض وفيها من عجائب الحيوان والجواهر اضعاف ما تشاهده على وجه الارض كما أن سعته أصناف سعة الارض انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم *

وأعجب من ذلك كله الماء ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شئ واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى اخراجها *

فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها

متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته *

﴿ آية الهواء وعجائب الجوّ ﴾

ومن آياته تعالى الهواء اللطيف . فان شاء جعله نشراً بين يدى رحمته كما قال سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ فيصل بحركته روح الهواء الى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء. وان شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ *

ثم انظر الى عجائب الجوّ وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهى عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن الى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ وهذا هو الذى بينهما وأشار الى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوّ صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جوّ السماء الى أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القطرات حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة لعجزوا وكل ذلك من فضل الجبار القادر لا إله إلاّ هو *

﴿ آية السموات ﴾

ومن آياته تعالى ملكوت السموات وما فيها من الكواكب وقد عظم الله تعالى أمر السموات والنجوم في كتابه فما من سورة إلاّ وتشتمل على تفخيمها فى مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ وأثنى على المتفكرين فيه فقال ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فارفع رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغيُّر فى سيرها بل تجرى جميعاً فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طىّ السجل للكتاب . وتدبر كثرة كواكبها واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة وانظر إلى ايلاجه الليل في النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر كيف أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة

من فوقها وعجائب السموات لا مطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر وعلى الجملة فما من كوكب من الكواكب إلاّ ولله تعالى فيه حكم كثيرة . وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنيّ فتراه مزوقا بالصبغ مموّها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه ليس لك هم إلاّ شهوتك اشتغلت بأنواع الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض . فاستكثر من معرفة عجيب صنع الله تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم . والله الملهم *

كتاب ذكر الموت وما بعده

﴿ فضل ذكر الموت ﴾

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ أكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هاذِمِ اللّذّاتِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ أكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فإنّهُ يُمحّصُ الذُّنوبَ وَيُزَهّدُ فى الدُّنيا ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظاً ﴾ وعنه ﴿ أكيَسُ النّاسِ أكثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلموتِ وَأشَدُّهُمُ استِعْدَادًا لهُ أولئِكَ همُ الأكياسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنيا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ ﴾

وعن عبد الله بن مطرّف قال : ان هذا الموت قد نغص على أهل

النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه *

واعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذُكّرَ به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذى تَفِرُّونَ مِنهُ فإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثم تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكم بِما كُنتُمْ تَعْملونَ ﴾ ثم الناس إما منهمك واما تائب مبتدئ واما عارف منته . أما المنهمك فلايذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة . وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ثم ان أنجع طريق فى ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدّد ذكر الموت فى القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر فى الحال أنه لابد من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا مانصير

اليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا ثم بكى رحمه الله تعالى *

﴿ فضيلة قصر الأمل ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر ﴿ إذَا أصبَحْتَ فَلا تنتَظِرِ المَساءَ وَإذا أمسَيْتَ فَلاَ تَنتَظِرِ الصَّباحَ وخُذْ مِنْ حَياتِكَ لَمَوتِكَ وَمِنْ صِحّتِكَ لِسُقمِكَ ﴾ وعن علىّ رضى الله عنه رفعه : ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الأمل فانه الحب للدنيا *

وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد فان الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ومن ليل ونهار فلا يقدر نزول الموت به مع رؤياه من مات بين يديه ولا يقدر أن تشيع جنازته وهو لا يزال يشيع الجنائز فما أغفله وما أجهله فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولا علاج لذلك إلاّ الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب فمهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير *

﴿ المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إغتَنِمْ خَمساً قَبلَ خَمسٍ

شبابَكَ قبلَ هرَمِكَ وَصِحّتَكَ قَبلَ سُقْمِكَ وَغِناكَ قَبلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبلَ شُغلِكَ وحَياتَكَ قَبلَ مَوتِكَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ نِعمَتانِ مَغبونٌ فِيهِما كَثيرٌ مِنَ النّاسِ الصّحّةُ وَالفَرَاغُ ﴾ أى أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقرّبون بها الى الله عز وجلّ رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعنى الانفاس . آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك . آخر العدد دخولك فى قبرك *

وسبب التأخير هو الانس بالدنيا وشهواتها والتسويف فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض فى شغل إلاّ ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل الى شغل بل الى أشغال الى أن تخطفه المنية فى وقت لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته. وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف. والمسوّف المسكين لايدرى أن الذى يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا . وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا فراغ قط وهيهات . فما يفرغ منها إلاّ من أطرحها *

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلاّ إلى أرب

نسأله تعالى أن لايجعل لنا بعد الموت حسرة إنه سميع الدُّعاء *

﴿ بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور ﴾

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه و يتكدّر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لاتدرى متى يغشاك *

واعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لا لأهل الغفلة فانها لاتزيدهم مشاهدتها إلاّ قسوة لأنهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون . ولا يحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون . أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون . ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا يحسبون . فبطل حسبانهم . وانقرض على القرب زمانهم . فلا ينظر عبد الى جنازة إلاّ و يقدّر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكان قد . ولعله فى غد و بعد غد . قال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلاّ متقنعا باكيا . فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لاننظر الى جماعة يحضرون جنازة إلاّ وأكثرهم يضحكون و يلهون ولا يتكلمون إلاّ فى ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلاّ فى الحيلة التى بها يتناول بعض ماخلفه ولا يتفكر واحد منهم الى ماشاء الله فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلاّ قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب حتى نسينا الله تعالي واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهوا ونغفل ونشتغل

بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة *

(فمن آداب حضور الجنازة) التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا يدرى حقيقتها *

(وأما زيارة القبور) فهى مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد . وأما النساء فلا بقى خيرُ زيارتهنّ بشرّها لأنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها نعم لا بأس بخروج المرأة فى ثياب بذلة تردّ أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر *

والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً لوجه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء الى القبر فيقول السلام على النبي * السلام على أبى بكر * السلام على أبى وينصرف وكان بعض السلف إذا وقف على باب المقابر يقول : آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيّآتكم وقبل الله حسناتكم . فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها والمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار به بأن يتصور فى

قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به ويستحب الثناء على الميت وأن لايذكر إلاّ بالجميل . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاتَسبُّوا الأمواتَ فإنَّهم قد أفضَوْا إلى ماقَدَّمُوا ﴾ *

﴿ بيان المأثور عند موت الولد ﴾

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر فسبقه الولد الى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لايعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلاّ تقدم وتأخر . وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى أن يلحق المتأخر . واذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه . لا سيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب فعن أبى هريرة رفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ لَسقطٌ أقدِمُهُ بينَ يدَىَّ أحبُّ إلىَّ مِنْ فارسٍ أخلِّفُهُ خلفى ﴾ وانما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَمُوتُ لِأحَدٍ مِنَ المُسلمينَ ثلاثةٌ مِنَ الوَلَدِ فيحتَسِبُهُمْ إلاّ كانوا لهُ جُنَّةً مِنَ النّارِ ﴾ فقالت امرأة أو اثنان يارسول الله قال ﴿ أوِ اثْنانِ ﴾ وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقربه الى الاجابة وقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد غفرت ماوجب لى عليه فاغفرْ له ماوجب لك عليه فانك أجود وأكرم ووقف اعرابى على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد وهبت له ماقصر فيه من برى فهب له ماقصر فيه من طاعتك وينبغى أن يتذكر عند موت الولد الفجائع

الكبرى ليتسلى بها عن شدّة الجزع فما من مصيبة إلاّ ويتصوّر ماهو أعظم منها وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر *

﴿ ذكرى مابعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة ﴾

كما أن للموت شدّة فى أحواله وسكراته وخطرًا فى خوف العاقبة كذلك الخطر فى مقاساة ظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الاخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد واما بالاشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابدّ لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها . وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدّة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ماتكتنفه من المصاعب والاهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم . ومَنْ أُخبِرَ بأن مابين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت ثم مدّ يده لتناوله كان مصدّقا بلسانه ومكذّبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . فمثل نفسك وقد بعثت من قبرك مبهوتا من شدّة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى

طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الرعب مضافا الى ماكان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأرضِ إلاّ مَنْ شاءَ اللهُ ثمّ نُفِخَ فِيهِ أخرَى فإذَا هم قِيامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم إنتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم فكيف حالك وحال قلبك هنالك وقد بدّلت الأرض غير الأرض والسموات وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة وازدحموا فى الموقف شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم . فتأمل يامسكين فى طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه والخجلة والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى وأنت عار مكشوف ذليل متحير مبهوت منتظر لما يجرى عليك القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم بهذه الحال فانها عظيمة واستعدّ لهذا اليوم العظيم شأنه القاهر سلطانه القريب أوانه . يومَ تذهل فيه كلّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزواهر قد انكدرت والشمس قد كوّرت والجبال قد سيّرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الأبدان قد زوّجت والجحيم قد سعرت والجنة قد أزلفت *

وقد وصف الله بعض دواهى يوم القيامة وأكثر من أساميه لتقف

بكثرة أساميه على كثرة معانيه فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامى والالقاب بل الغرض تنبيه أولى الالباب فتحت كل اسمٍ من أسماء القيامة سرّ وفى كلّ نعت من نعوتها معنًى فاحرص على معرفة معانيها فمن أساميها يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم الزلزلة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الغاشية ويوم الراجفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم التناد ويوم الجزاء ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الخزى ويوم عسير ويوم الدّين ويوم النشور ويوم الخلود ويوم لاريب فيه ويوم لاتجزى نفس عن نفس شيأ ويوم تشخص فيه الابصار ويوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه يوم لاينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم *

فالويل كل الويل للغافلين . يرسل الله لنا سيد المرسلين . وينزل عليه الكتاب المبين . ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين . ثم يعرفنا غفلتنا ويقول ﴿ إقتَرَبَ لِلناس حِسابُهُمْ وَهُمْ فى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مايأْتِيهم منْ ذِكرٍ مِن رَبّهِم مُحدَث إلاّ استَمَعُوهُ وَهُم يَلعبُونَ لاَهِيَةً قُلوبُهُم ﴾ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ﴿ إقترَبَتِ السّاعَةُ وانشَقّ القَمَرُ . إنّهمْ يَرَونَهُ بَعيدًا ونَرَاهُ قَريباً . وَما يُدرِيكَ لعَلَّ السّاعَةَ تكُونُ قريبًا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه . ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله

من هذه الغفلة ان لم يتداركنا الله بواسع رحمته *

﴿ صفة السؤال ﴾

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الاحوال فيمايتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينما أنت فى كرب القامية وعرقها وشدة عظائمها اذ نزلت ملائكة من ارجاء السماء الى موقف العرض على الجبار فيقومون صفا صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وينادون واحدا بعد واحد فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرَقَتِ الأرضُ بِنورِ رَبِّها ﴾ وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسائلة العباد وظن كل واحد انه ما يراه أحد سواه . وانه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه . فيبدأ سبحانه بالانبياء ﴿ يومَ يَجمَعُ اللهُ الرُّسلَ فيقولُ ماذا أُجِبتُم قالوا لا عِلمَ لنا إنّكَ أنتَ علاّمُ الغيُوبِ ﴾ فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء من شدة الهيبة . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سرّه وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف

لك عن مساويها فليت شعرى بأىّ قدم تقف بين يديه بأى لسان تجيب و بأى قلب تعقل ما تقول وفي الخبر ﴿ لا تَزُولُ قَدَمَا ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ من عِندَ رَبِّهِ حتى يُسئَلَ عَن أربعِ خصالٍ عَن عُمُرِهِ فيما أفناهُ وعن شَبَابِهِ فيما أبلاهُ وَعن مالِهِ مِن أين اكتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ وَماذا عَمِلَ فيما عَلِمَ ﴾ فأعظم يامسكين بحياتك عند ذلك وبخطرك ثم لا تغفل عن الفكر فى الميزان . وتطاير الكتب الى الشمائل والايمان ﴿ فمن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فهُوَ فى عِيشَةٍ راضِيةٍ ومَنْ خفَّتْ مَوازِينُهُ فأُمهُ هاوِيَةٌ وما أدراكَ ماهِيَهْ نارٌ حامِيَةٌ ﴾ *

﴿ صفة الخصماء ورد المظالم ﴾

إعلم انه لاينجو من خطر الميزان الا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته . وانما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أن يموت توبة تصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى وهذا يقول استهزأت بى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتنى ففششتنى وهذا يقول أخفيت عيب سلعتك عنى وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك وهذا يقول رأيتنى محتاجاً وأنت غنى فما أكرمتنى وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فما راعيتنى فبينما أنت كذلك وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبهم وأنت

مبهوت متحير من كثرتهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليومَ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ لاَ ظُلم اليومَ ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك وتتذكر ما أنذرك الله على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبنَّ اللهَ غافِلاً عمّا يعملُ الظّالمُونَ إنّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيومٍ تَشخَصُ فيهِ الأبصارُ مُهطعِينَ مُقنِعِي رُؤُسِهِم لا يَرتَدُّ إليهِم طَرفُهُم وأفئِدَتُهم هَواءٌ ﴾ فما أشد ترحك اليوم بتمضمضك باعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم اذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك . فاحذر من التعرض لسخط الله وعقابه الاليم . واستقم على صراطه المستقيم . فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا . ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا . وأثقل ظهره بالاوزار وعصى . تعثر فى أوّل قدم من الصراط وتردى *

﴿ القول فى أهوال جهنم وقانا الله عذابها ﴾

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع اذ قال سبحانه ﴿وَإنْ مِنكم إلاّ وَارِدُها كانَ عَلى رَبّكَ حَتما مقضيًّا . ثمَّ نُنجّى الّذينَ اتّقوْا وَنَذرُ الظّالِمينَ فِيها جِثِيًّا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا فبينما هم فى كربها وأهوالها

وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها . وتشفيع شفعائها . إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب . وأظلت عليهم نار ذات لهب . وسمعوا لها زفيرًا يفصح عن شدّة الغيظ والغضب . فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب . وجثتِ الأمم على الركب . حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب . فهناك تسوق الزّبانية المجرمين إلى العذاب الشديد وينكسونه فى قعر الجحيم . ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم . فاسكنوا دارًا يخلد فيها الأسير . ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم . ومستقرُّهم الجحيم . شدّت أقدامهم الى النواصى . واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى . ينادون من أكنافها . ويصيحون في نواحيها وأطرافها . يا مالك قد نضجت منا الجلود . يامالك أخرجنا منها فانا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرّطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف يدعون بالويل والثبور وتغلى بهم النار كغلى القدور تهشم بمقامع الحديد جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت اليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواد من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وكسرت عظامهم ومزقت جلودهم ولهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيّات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

فكما أن اكباب الناس على الدُّنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرَّة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلاّ أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدُّنيا لافتدى بها من شدّة ماهو فيه . فيالحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدُّنيا ولذّاتها *

فانظر يامسكين فى هذه الأهوال والعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدُّنيا ولست تدرى بماذا سبق القضاء فى حقك (فان قلت) فليت شعرى ماذا موردى والى ماذا مآلى ومرجعى وماالذى سبق به القضاء فى حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدّق رجاءك بسببها وهو أن تنظر الى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر فانك مبعد عن النار وان كنت لاتقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرًّا إلاّ ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضىٌّ عليك . فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدُّخان على النار فقد قال الله تعالى ﴿ إنَّ الأبرَارَ لَفِي نَعيمٍ وَإنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحيمٍ ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين . وقد عرفت مستقرَّك من الدّارين *

﴿ صفة الجنة وأصناف نعيمها ﴾

اعلم أن تلك الدّار التى عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى فتأمل

في نعيمها وسرورها . فان من بعد من احداهما استقرّ لا محالة فى الأخرى فسق نفسك بسوط التقوى لتنال الملك العظيم . وتسلم من العذاب الأليم فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهنّ الياقوت والمرجان لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لايخافون فيها ولا يحزنون ومن ريب المنون آمنون فياعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لايموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها . والله لولم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرًا بأن يهجر الدُّنيا بسببها وأن لايؤثر عليها ما التصرّم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون والى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من إلله ما لاينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن . فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ ﴾ الى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة وسورة الانسان . وغيرها من السور . ففيها مايدلك على أن ثمة مالاعين رأتَ ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كما ورد فى الاثر . ويكفى

من الاطلاع على جملتها ما بينا وقد ورد فى تفصيل صفاتها كثير من الاخبار المدوّنة فى الاسفار الكبار . واعلم أن درجات الآخرة متفاوتة فان الا خرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرًا فكذلك فيما يُجازَوْنَ به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ وَسابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكم وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَوَاتُ وَالأرضُ أعِدَّتْ لِلمتّقِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنَّ الأبرَارَ لَفِى نَعيمٍ عَلى الأرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعرِفُ فى وُجُوهِهِم نَضْرَةَ النّعيمِ يُسْقَونَ مِنْ رَحِيقٍ مَختومٍ خِتامُهُ مِسكٌ وَفى ذَلكَ فَليَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسنِيمٍ عَيناً يَشرَبُ بِها المُقَرّبونَ ﴾

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل . ونعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل . ونستغفرك من كلّ مازلت به القدم . أو طغى به القلم . يا واسع المغفرة يا أرحم الرّاحمين *

قال مؤلفه

تم بحمده تعالى إختصار ﴿إحياء علوم الدّين﴾ ليلة الجمعة السادسة عشرة من ربيع الثانى قبيل العشاء سنة ١٣٢٤ هـ . فى دارنا ظاهر باب الجابية فى زقاق العلامة المكتبى على يد جامعه الفقير ﴿محمد جمال الدّين﴾ ابن محمد سعيد ابن قاسم بن صالح القاسمى الدمشقى عفا المولى عن زلله . بمنه وفضله آمين *

خاتمة الكتاب لناشره

نحمد ربنا العليّ الكبير ونشكره على ما وهبنا من العقل والتفكير للإرشاد والتبشير حتى لانسرى الغفلة من الصغير إلى الكبير ونصلّى ونسلّم على نبيه البشير النذير وعلى آله وأصحابه أولى الفضل الخطير *

﴿ أمّا بعد ﴾ فإنّ أفضل ماوعظ به المتقون ووصل به العارفون كتاب الله وسنّة نبيه وهَدْى الرّاشدين من بعده فطوبى لمن اتّعظ وبشرى لمن استيقظ واستعدّ لمآبه وإيابه إلى ربه بالأعمال الصالحة والنّظر فى آياته الواضحة حتى استنار وأنار الطرق للطالبين ويا سعادة من نصب نفسه للإفادة وقوّمها بالإستفادة فذلك مقام الأنبياء والمرسلين وقد حذا حذوهم العارفون واستمدّ بنور معارفهم العالمون فأوضحوا ما ستروه وفصّلوا ما أجملوه حتى ارضوا ربّهم وضميرهم وقابلوه بوجوه بيضاء وقلوب سليمة نوراء قد أعدّ لهم أحسن الجزاء وكان فى مقدّمتهم بل واسطة عقد سعادتهم (الإمام الغزالي) حيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلاّ أنارها وأوضحها ووقف حياته خدمة للدّين وموعظة للمؤمنين وتمحيصاً للحقائق من شبهات المرتابين فألّف ووضح وبيّن وأفصح حتى تلاشت الشبهات وأتى بالآيات البيّنات فاستحق أن يسمّى بحجة الإسلام وإمام المسلمين وكان من أجمع كتبه للحقائق وأنفعها فى كشف الغوامض والدقائق كتابه ﴿ إحياء العلوم ﴾ غير أنه لا يخلو من أبحاث علمية ومواضيع فلسفية تعزب

عن معرفتها عامة المؤمنين ويبعد عن تناولها أفهام القاصرين فكان محتاجا لتمحيصه من المباحث وتخليصه من مواضع الخوض فى بحار الجدل وتشريح المسائل فى الردّ على المبطلين ودحضه حجج المرتابين ليكون مَعيناً عذباً للواردين وعسلا مصفًّى للشاربين وقد تمنى مثل هذا العمل المبرور والسعي المشكور حضرة المرحوم الأستاذ الامام الشيخ (محمدعبده) مفتى مصر سابقاً وصرّح بحاجة الأمة الاسلامية الى اختصار كتاب الاحياء والاكتفاء من مواضعه وأبحاثه بالقدر الذى يسهل فهمه على عموم الطبقات ولا يصعب دركه على غير المشتغلين باللغويّات والاصطلاحات وكان ذلك بحضرة الأستاذ الكبير والعالم العارف الشهير صاحب هذا المختصر النفيس حضرة (الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى) رضى الله عنه أيّام ان كان نزيلا عنده كما أشار الى ذلك فى خطبته فتوافقا على حسن هذا العمل ولزومه للأمة فى هذا الزّمن فأخذ على عاتقه هذا العمل المبرور حضرة الأستاذ القاسمى المذكور فصنّف مختصره الموسوم *

بموعظة المؤمنين * من احياء علوم الدين

فجاء بحمد الله سفينة الواعظ وعجالة المرشد وجعبة النّصوح وتذكرة الدعوة وموعظة المؤمنين وروح الاحياء صنفه بعد الرويّة واستقراء حال الأمم من مسلميهم وبعد أن عبر بواطن قلوبهم مستطلعا * وخاض فى بحر أحوالهم مستخبرا * أىُّ الدواء أنجع وأىُّ العلاج أنفع فلذلك قام بهذه الخدمة الدينية ولا أخال الا أن الغزالي نفث فى روعه ليكتب أو أملى عليه

ماينا سب العصر ليستخلصه حتى أتم كما أرادا معاً * واتّفقا عليه وضعاً * وأتاح الله الأسباب لنشره وسهّل طريق طبعه لنفع الأمة أن قد تشرّفتُ بمقابلة حضرة مؤلفه وتذاكرنا معه فيما ينفع الأمة ويهمّ العامة من الوعظ والارشاد

ولما رأى شغفى لنشر أمثال تلكم المواضيع النافعة سمحت نفسه الكبيرة وارتاح ضميره الى اهدائى هذا الكتاب المستطاب لأنه من أنفع ما يهدى لأولى الالباب فى هذا الزمن خصوصاً وهو يرد شبوبيّة الدين بعد شيخوخته وينهض بالعالم الاسلامى من وهدته وسقطته فتقبلته منه شاكرا لأنعمه ومكثت أترقب المكنة لنشره وانتهز الفرص لطبعه فوافق حظّ الوعظ ان ذكرت ذلك لحضرة الأديب الفاضل الذى لم يجد طريقاً للخير إلاّ سلكه حضرة (محمد أفندى اسماعيل) صاحب الأيادى البيضاء على الادب وذويه فنشط فى الفور وأخذ على عهدته مساعدتى على طبعه ونشره بمطبعته العامرة ﴿ مطبعة السعادة ﴾ وكان سبباً قويًّا لاخراجه الى عالم المطبوعات كتابا جاء بهجة لذوى الافكار والابصار قد اعتُنى بطبعه على ورق جيّد وحروف جميلة مع ضبط الشكل للآيات والأحاديث وساعدنى على تصحيحه جماعة من فضلاء العلماء حتى جاء كتابا لم يسبق له نظير صحةً وجمالاً وقدأعطى لنا حضرة مؤلفه حقوق الطبع حتى لايعاد طبعه الا بمعرفتنا . فنشكره على هذه العناية فى البداية والنهاية *

محيي الدين صبرى
الكردى

فهرست

الجزء الثانى من كتاب

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

كتاب رياضة النفس

صحيفة		صحيفة	
٢	تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب		حسن الخلق على الجملة
٣	بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق	١١	بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الأخلاق
٤	بيان ما قاله السلف فى حسن الخلق وشرح ماهيته	١٣	بيان الطريق الذى يعرف به الانسان عيوب نفسه
٦	بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة	١٥	بيان تمييز علامات حسن الخلق
٨	بيان السبب الذى به ينال	١٨	بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوءهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

﴿ كتاب آفات اللسان ﴾

صحيفة		صحيفة	
٢٢	بيان خطر اللسان		واليمين
٢٣	جمل من آفات اللّسان	٣٦	بيان مارخص فيه من الكذب
..	الأولى الكلام فيما لا يعنيه	..	بيان المعاريض
..	الثانية فضول الكلام	٣٨	الخامسة عشر الغيبة
٢٤	الثالثة الخوض فى الباطل	..	بيان معنى الغيبة وحدودها
٢٥	الرّابعة المراء والجدال	٤٠	الأسباب الباعثة على الغيبة
٢٦	الخامسة الخصومة	٤٢	بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة
٢٧	السادسة التقعر فى الكلام	٤٣	بيان تحريم سوء الظنّ
٢٨	السابعة الفحش والسبّ وبذاءة اللسان	٤٤	بيان الأعذار المرخّصة فى الغيبة
٢٩	الثامنة اللّعن	٤٥	بيان كفّارة الغيبة
..	التاسعة الغناء والشعر	٤٦	السادسة عشر النميمة
٣٠	العاشرة المزاح	٤٧	السابعة عشر كلام ذى الوجهين
٣٢	الحادية عشر السخرية والاستهزاء	٤٨	الثامنة عشر المدح
٣٣	الثانية عشر إفشاء السرّ	٥٠	التاسعة عشر الخطأ فى دقائق لفظية
٣٤	الثالثة عشر الوعد الكاذب	٥١	العشرون سؤال العوام عن الغوامض
٣٥	الرابعة عشر الكذب فى القول		

﴿ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ﴾

صحيفة

٥٢ بيان ذم الغضب
٥٣ درجات الناس مع الغضب
٥٥ زوال الغضب بالرّياضة وغيرها
٥٦ بيان الأسباب المهيّجة للغضب
٥٧ بيان علاج الغضب بعد هيجانه
٥٩ فضيلة كظم الغيظ
٦٠ فضيلة الحلم
٦١ بيان القدر الذى يجوز به الانتصار من الكلام

صحيفة

٦٢ معنى الحقد ونتائجه الوخيمة وفضيلة الرفق
٦٣ فضيلة العفو والاحسان
٦٤ فضيلة الرفق
٦٥ ذم الحسد ـ وحقيقة الحسد وحكمه ـ وأقسامه
٦٦ أسباب الحسد
٦٨ بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب

﴿ كتاب ذم الدُّنيا ﴾

٧٠ بيان الدُّنيا المذمومة
٧٢ بيان حقيقة الدُّنيا في نفسها

﴿ كتاب ذم البخل وذم المال ﴾

٧٤ بيان ذم المال وكراهة حبّه
٧٥ بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذّم
٧٦ بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٧٨ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد
٧٩ بيان فضيلة السخاء
٨١ بيان ذم البخل
٨٢ بيان الايثار وفضله
٨٤ بيان حد السخاء والبخل

صحيفة
وحقيقتهما

صحيفة
٨٦ بيان علاج البخل

٨٧ ﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

٨٨ بيان الحد الذى يباح فيه الجاه
٩٠ سبب حب المدح وبغض الذم
٩١ بيان علاج حب الجاه
٠٠ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم
٩٢ بيان علاج كراهة الذم
٩٤ بيان ذم الرياء
٩٥ بيان حقيقة الرياء وجوامع مايرائى به
٩٨ حكم الرياء
٩٩ درجات الرياء
١٠١ بيان المراءى لأجله
١٠٣ بيان الرياء الخفى الذي هو أخفى من دبيب النمل

١٠٦ بيان مايحبط العمل من الرياء وما لايحبط
١٠٧ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه وفى علاجه مقامان
١٠٧ المقام الأوّل فى قلع عروقه وأصوله
١٠٨ المقام الثانى فى دفع العارض منه أثناء العبادة
١٠٩ بيان الرخصة فى قصد اظهار الطاعات
١١٠ بيان الخطأ فى ترك الطاعات خوفا من الرياء
١١١ بيان ماعلى المريد قبل العمل وبعده وفيه

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب ﴾

١١٢ ماورد في ذم الكبر
١١٤ بيان حقيقة الكبر وآفته

صحيفة		صحيفة	
١١٦	بيان ما به التكبُّر ـ الأوّل العلم	١٢٢	بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع وفيه مقامان
١١٧	الثانى العمل والعبادة	...	المقام الاول فى استئصال أصله
١١٩	الثالث التكبر بالحسب والنسب	١٢٦	المقام الثانى فيما يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المتقدمة
١٢٠	الرابع التفاخر بالجمال	١٣١	بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع
...	الخامس الكبر بالمال	١٣٢	بيان ذم العجب وآفاته
...	السادس الكبر بالقوّة وشدّة البطش	١٣٣	بيان آفة العجب
...	السابع التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة والاقارب	١٣٤	بيان علاج العجب على الجملة
١٢٠	بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه	...	بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه
...	أثر التواضع والتكبر		

﴿ كتاب ذم الغرور ﴾

١٣٨	بيان ذم الغرور وحقيقته	١٤٧	غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة
١٤١	بيان الغلط في تسمية التمنى والغرور رجاء	١٥١	غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة
١٤٣	موضع الرجاء المحمود	١٥٣	غرور أرباب الأموال
١٤٥	بيان بعض أصناف المغترين		

﴿ كتاب التوبة ﴾

صحيفة		صحيفة	
١٥٩	حقيقة التوبة	١٦٧	انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر
١٦٠	بيان وجوب التوبة وفضلها	١٦٨	بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
...	وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام	١٧٠	تمام التوبة وشروطها ودوامها
١٦٤	بيان أنّ التوبة الصحيحة مقبولة	١٧٢	أقسام العباد فى دوام التوبة
١٦٥	بيان ماتكون عنه التوبة وهى الذنوب	١٧٥	مايفعله التائب بعد الذنب
		١٧٧	دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

١٧٩	فضيلة الصبر		به عليه
١٨٠	حقيقة الصبر وأقسامه	١٨٦	بيان فضيلة الشكر وحقيقة الشكر
١٨١	بيان مظان الحاجة الى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الاحوال	١٨٧	بيان الشكر فى حق الله تعالى
		١٨٩	السبب الصارف للخلق عن الشكر
١٨٥	دواء الصبر وما يستعان	١٩٠	مايشترك فيه الصبر والشكر

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

١٩٢	بيان حقيقة الرجاء	١٩٥	بيان حقيقة الخوف

صحيفة

١٩٦ الدواء الذى يستجاب به

صحيفة

الخوف

﴿ كتاب الفقر والزهد ﴾

١٩٩ فضيلة الفقر والفقراء الراضين الصادقين

٢٠٠ آداب الفقير فى فقره

٢٠١ آداب الفقير فى قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

٢٠٢ تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر اليه

٢٠٤ فضيلة الزهد وحقيقته

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

٢٠٦ فضيلة النية

٠٠٠ تفضيل الاعمال المتعلقة بالنية

٢١٠ فضيلة الاخلاص وحقيقته

٢١١ فضيلة الصدق ودرجاته

﴿ كتاب المحاسبة والمراقبة ﴾

٢١٥ بيان لزوم المحاسبة

٢١٧ بيان مشارطة النفس

٢١٨ فضيلة المراقبة

٢١٩ حقيقة المراقبة

٢٢٠ بيان محاسبة النفس بعد العمل

٢٢٢ توبيخ النفس ومعاتبتها

﴿ كتاب التفكّر ﴾

٢٢٤ فضيلة التفكر

٢٢٥ بيان مجارى الفكر

٢٢٩ بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى

٠٠٠ آية الانسان

٢٣٧ آية الأرض

صحيفة		صحيفة	
٢٣٨	آية أصناف الحيوانات	٢٤١	آية الهواء وعجائب الجوّ
٢٤٠	آية البحار	٢٤٢	آية السموات

﴿ كتاب ذكر الموت وما بعده ﴾

٢٤٣	فضل ذكر الموت		البرزخ وأهوال القيامة
٢٤٥	فضيلة قصر الامل	٢٥٣	صفة السؤال
...	المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير	٢٥٤	صفة الخصماء ورد المظالم
		٢٥٥	القول فى أهوال جهنم وقانا الله عذابها
٢٤٧	بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور	٢٥٧	صفة الجنة وأصناف نعيمها
٢٤٩	بيان المأثور عند موت الولد	٢٥٩	قال مؤلفه
٢٥٠	ذكرى ما بعد الموت من	٢٦٠	خاتمة الكتاب لناشره

تمت الفهرست